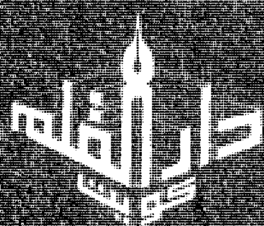
القرآن الكريم
في مواجهة الماديين الملحدين

الجزء الأول

تأليف

الدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر

أستاذ الفلسفة والعقيدة بجامعة الأزهر
وجامعة قطر



القرآن الكريم
في مواجهة الماديين الملحدين

الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

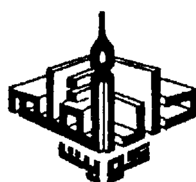


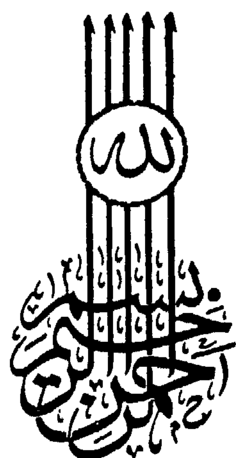
دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو
ص. ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

القرآن الكريم
في مواجهة الماديين الملحدين

الجزء الأول

تأليف
الدكتور احمد عبد الحميد الشاعر
استاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر
وجامعة قطر




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد يسعدني أن أتقدم بهذا البحث المتواضع - في طبعته الثانية - إلى القراء الكرام .

وإنه لمن دواعي الغبطة والسرور أن تأتي تلك الطبعة ولما ينته عام على الطبعة الاولى بعد .

ومن حق القاريء أن يتطلع إلى وجهة نظر المؤلف حينما يقدم بحثه للطبعة الثانية . لا من حيث التقويم والإجراء . بل من حيث الموضوعية الدقيقة ، والمنهجية السليمة ، فقد يكون ثمة رأي جديد . أو بعض الإضافات والايضاحات .

ولهذا قمت بمراجعة شاملة لهذا البحث ، فرأيته من وجهة نظري - وافيا بموضوعه ، بعيدا عن جفاف الأسلوب ، وغموض المعنى ، وغير ذلك مما اشتهر في طرح القضايا الفلسفية ، مما لم يسترح إليه قاريء اليوم إلا القليل .

هذا ، ما أرى ، وقد يكون للقاريء رأي آخر ، وحبذا لو سعدت بمعرفته . فكلنا طلاب الحقيقة ، والحقيقة ضالة المؤمن ينشدها أنّي وجدها .

لهذا كله أجدت مغتبطا بتقديم تلك الطبعة . رغم أن الجزء الثاني من هذا البحث . لم ينته إعداده بعد .

ومن يمن الطالع بل من فضل الله تعالى أن أخط هذه السطور في

« الدوحة » حيث أشرف بالعمل ـ معارا ـ الى « كلية الشريعة والدراسات الاسلامية » بجامعة قطر .

(فالحمد لله الذي هدانا لهذا . وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)

أحمد الشاعر

الدوحة في

منتصف شهر شعبان الكريم ١٤٠٢ هـ

٧ من يونيو ١٩٨٢ م

مقدمة الطبعة الأولى

إن الإسلام ـ منذ اللحظة الأولى لمجيئه ـ وهو مثار جدل وتشكيك من المشركين والماديين ومن على شاكلتهم .

ولقد بلغت تلك الحملات ذروتها في العصر الحديث ، حيث تذرعت باسم العلم ، واتخذت منه سلاحاً تشهره ـ دائما ـ في وجه الإسلام والطعن فيه . ومن هنا أصبح هذا العصر يدعي ـ بحق ـ « عصر الإلحاد العلمي » خاصة في القرن الماضي » القرن التاسع عشر ، الذي تميز بشراسته وضراوته ضد الإسلام والمسلمين ، ومن هنا كانت الحملات المسعورة تسير في اتجاهين :

الاتجاه الأول : الاحتلال العسكري للعالم الإسلامي ، وتقسيمه إلى مناطق نفوذ عسكرية وسياسية واقتصادية .

الاتجاه الثاني : الغزو الثقافي المسموم .

وإذا كان الاحتلال العسكري قد اختفى من العالم الإسلامي فإن ذلك العالم لا يزال يترنح تحت وطأة « الاحتلال الفكري » إن صحت العبارة الذي هو أشد خطورة من الاحتلال العسكري المشبوه .

ولقد أدى ذلك النوع من الاحتلال إلى احتواء بعض العناصر ، ونجح في إعدادها إعداداً خاصا : فأصبحت تعمل عملها في جد وإخلاص وولاء لأرباب نعمتها . تحت شعارات رنانة طنانة ، ولكنها مكشوفة والحمد لله . ولم يعدم الإسلام رجالا مخلصين له ، يذودون عنه ، ويردون كيد أعدائه . يفضحون نواياهم ، ويدحضون فكرهم وآراءهم ، بالحجة العلمية المناسبة .

من هنا ـ ولله الحمد ـ أقدم هذه الدراسة في مواجهة المذاهب المادية

المنحرفة وهي دراسة ـ فيما أرى ـ من نوع جديد .

فقد درجنا على مواجهة تلك المذاهب في دراسة عقلية نقدية مستهدفة بيان زيفها وتهافتها في مبادئها وغاياتها :

ولكن لماذا لا نتجه نحو القرآن في تلك المواجهة ؟

ألم يكن الماديون الملحدون في مواجهة دائمة مع القرآن في كل قضاياه ؟

ألم يكن القرآن ـ أيضاً ـ في مجابهة مستمرة مع الماديين ؟

وإذا كان القرآن قد رصد تلك المواجهة ، فهل تصدق على الماديين في زمانه فحسب ؟

أو هي تصدق على الماديين من قبل ومن بعد حتى الآن وبعد الآن ؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل يلتقي الماديون على قدر مشترك في مبادئهم ومنهجم وأهدافهم ؟

وهكذا إلى آخر تلك التساؤلات حول الماديين ومذاهبهم المختلفة .

إن فكرة هذه الدراسة ـ من خلال الرؤية القرآنية ـ تكمن في نفسي ، وتلح على منذ عام ١٩٧٣ حيث أصدر الاستاذ/ عبد الكريم الخطيب كتابه « الإسلام في مواجهة الماديين الملحدين » وقد كان منهجه في دراسته : أن قدم حقائق الإسلام في عقيدته وشرائعه وعاداته وأخلاقه من خلال كتاب الله تعالى مباشرة ، وذلك طبقا لمنهج التزم به في تلك المواجهة ، وهو عمل محترم ، وجهد مشكور .

وبعد ذلك قام أستاذنا الدكتور محمد البهي بدراسة طريفة في تلك المواجهة وذلك من خلال تفسيره للقرآن الكريم تفسيراً موضوعياً ، ومن ثم عني في بداية عمله « بالسور المكية » فأخذ يصدرها تباعاً . نسأل الله له التوفيق .

ولقد قدم الدكتور البهي لتلك الدراسة بمقدمة خاصة طبعت في كتاب بعنوان « القرآن في مواجهة المادية » وقد كشف في هذه المقدمة عن صفات الماديين في القرآن ، ثم عرض بإيجاز شديد لموقفهم من القرآن والنبي ﷺ وبعد ذلك عقد مقارنة سريعة بين جاهلية الأمس وجاهلية اليوم .

ولقد زاد من رغبتي في هذه الدراسة لكي أسهم بجهد متواضع في تلك المواجهة من خلال القرآن ذاته ولكن بمنهج آخر بجانب هذين المنهجين السابقين .

ومنهجنا يقوم ـ بعون الله ـ على النهج القرآني : حسبما نفهمه من كتاب الله تعالى ، في دراسة موضوعية لمواجهة الماديين في كل ما أثاروه من قضايا : في القرآن والدين والألوهية ، والنبوات ، والبعث والجزاء والقيم الإنسانية الرفيعة .

ومن هنا جاء هذا الكتاب على النحو التالي :

الفصل الأول « نحو المنهج القرآني » ،

الفصل الثاني « الماديون في القرآن » ،

وهذان الفصلان يمثلان تمهيداً ضرورياً لتلك الدراسة وبعدها جاء :

الفصل الثالث « الماديون في مواجهة القرآن »

الفصل الرابع « الماديون في مواجهة الدين »

الفصل الخامس « الماديون في مواجهة الألوهية » ،

الفصل السادس « الماديون في مواجهة النبوات »

الفصل السابع « الماديون في مواجهة البعث والجزاء »

الفصل الثامن « الماديون في مواجهة القيم الإنسانية » .

وقد رغبت في أن تصدر هذه الدراسة في أجزاء :

الجزء الأول منها : هو ما بين أيدينا ـ ويشتمل على الفصول الأربعة الأولى :

وأحمد الله أن هذا الموضوع كان مثار مناقشات دائمة بيني وبين زملائي أعضاء هيئة التدريس في الجامعة ـ ولقد صادف ذلك هوى في أنفسهم ورغبة في فكرهم ولطالما أفدت منهم الكثير جزاهم الله عني وعن العلم وأهله خير الجزاء .

وإذا كانت لي من كلمة أخيرة ـ وهي في الحقيقة أولى ـ فإني أرجو من كل من يطلع على هذه الدراسة أن يتفضل ـ مشكوراً ـ بإبداء ما يراه من ملاحظات ونقد علمي بناء والله تعالى نسأل أن يتقبل هذا الجهد المتواضع خالصا لوجهه الكريم . « وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

القاهرة : حدائق القبة في منتصف شهر رمضان المبارك ١٤٠١ هـ
الموافق ١٦ من يوليو ١٩٨١م

المؤلف
أحمد الشاعر

الفصل الأول

نحو المنهج القرآني

* كيف نواجه المذاهب المادية ؟
* لماذا نتجه نحو المنهج القرآني ؟
* المنهج القرآني
* المنهج النقدي في القرآن

كيف نواجه المذاهب المادية ؟

لقد درج المفكرون المسلمون ، عند مواجهة المذاهب المادية ، والتيارات الإلحادية . أن يتناولوها في اتجاهين :

الاتجاه الأول : يعني بدارسة تلك المذاهب ، من حيث نشأتها ، ومبادئها ، وأهدافها ، بمنهج نقدي يستهدف وجه الحق في أمرها ، ومن ثم يكشف عن زيفها ، وتهافتها في مبادئها وغاياتها ، كما يوضح خطرها على الإنسان في دينه وقيمه وإنسانيته .

ومن هذا المنطلق ، صدر لنا كتاب « الإسلام والفكر المادي » كما صدر لنا كتاب « الإسلام والتيارات المعاصرة » بالاشتراك مع الأخ الفاضل الدكتور عبد المعطي بيومي .

والاتجاه الثاني : يعني بدراسة النظريات والقضايا المادية من خلال الرؤية الإسلامية الصحيحة ، وفي هذا المجال كان لنا ـ بتوفيق الله تعالى ـ كتاب « التحديات المعاصرة في مواجهة الإسلام » .

غير أن بعض المفكرين يرى : أن مواجهة المذاهب المادية على هذا النحو تخدم تلك المذاهب ، وتروج لها ، وتعمل على إشاعتها ، ومن ثم يرى[1] : أن الطريقة المثلى هي : أن نركز على إيضاح حقائق الإسلام صافية نقيه ـ من خلال مصادره الأساسية ـ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ـ ففي ذلك كل الخير لصد تلك التيارات المنحرفة .

ونحن نرى : أن الوحي الإلهي حينما تنزل على رسول الله ﷺ ـ لم

---

(١) من هؤلاء المفكرين الأستاذ / عبد الكريم الخطيب في كتابه « الإسلام في مواجهة الماديين الملحدين » ١٩٧٣

يصادف أرضا طيبة خالية من الأشواك ، وعقولا نقية مبرأة من الشرك وقلوبا طاهرة من أدران الوثنية .

وإنما صادف الوحي الإلهي ـ فيما صادف ـ قلوبا غلفا ، وعقولا صلدة ، ونفوسا مريضة .

ومن هنا ، عني الوحي الإلهي ـ خاصة في عهده المكي ـ بتحرير العقول من طغيان المادية ، وتطهير القلوب من أدران الشرك والوثنية ، وصد ـ بحق وقوة ـ تلك التحديات التي أثارها المشركون وغيرهم ـ وهو في كل ذلك . يصور قضاياهم ، ويحرر أفكارهم . بما لم يستطع هؤلاء وأولئك تصويره وتحريره .

وذلك يرجع إلى أن تلك التيارات المنحرفة منافية للفطرة ، وليست سوى أمراض خبيثة ، تمكنت من نفوس أصحابها فأصبحت معتقدات موروثة ـ تدعمها الثقافات الشائعة ، في البيئات المنحرفة

وما أشبه اليوم بالبارحة : العالم في هذه الحقبة من الزمن يموج بتيارات مادية جارفة . وخير منهج تتصدى به لمجابهة تلك التيارات إنما هو المنهج القرآني الرشيد .

لماذا نتجه نحو المنهج القرآني ؟

أما لماذا نتجه في فكرنا نحو المنهج القرآني ؟ فذلك أمر ليس اعتباطا ، ولا مجرد هوى في أنفسنا ، وإنما هو منهج علمي تأكد لدينا من رصد تلك المذاهب المادية ـ والمناهج المختلفة في مجابهتها . فوق أنه اعتقاد راسخ تدعمه عدة اعتبارات نوجزها فيما يلي :

أولا : أن القرآن الكريم كتاب الله الخالق إلى الإنسان المخلوق ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[2]

وهو الكتاب الإلهي الوحيد الذي يتمتع بالإعجاز ، والعصمة من الانحراف ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[3]

ثانيا : أنه الكتاب الإلهي الوحيد الذي تكفل الله تعالى بحفظه من التحريف ، وصيانته من التغيير والتبديل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[4] ومن ثم ظل وسيظل محفوظا في الصدور ومكتوبا في السطور إلى أن تقوم الساعة ، ولن تنال منه أيدي العابثين والمغرضين .

وذلك يرجع إلى أن القرآن الكريم هو كلمة الله الأخيرة الباقية مدى الحياة ، فهو جماع الوحي الإلهي المقدس الذي يضع الإنسان أمام الحقيقة الخالدة . في صورتها النقية الطاهرة . كما يكشف له عن وجه الحق في الدين والحياة ، وكل ما يشغله من حقائق ثابتة ، ومعتقدات إيمانية ، وأمور غيبية ، وقضايا التشريع والأخلاق . وهنا ينبغي أن نشير إلى عدة اعتبارات ـ أو مفارقات ـ أهمها :

١ ـ أن الكتب السماوية السابقة ـ صحف إبراهيم ، والزبور ، والتوراة ، والإنجيل ـ لم تتمتع بالإعجاز من جانب . كما لم تنعم بحفظ الله لها من

---

(٢) سورة هود الآية ١ — (٣) سورة فصلت الآية ٤٢

(٤) سورة الحجر الآية ٩

التحريف والتغيير والتبديل من جانب آخر . وذلك لأنها ليست كتبا إلهية خالدة ، ولا وحيا أبديا . وإنما هي كتب مرحلية على سلم الرسالات الإلهية . أدت مهمتها في حينها وكفى .

٢ ـ لم تكن تلك الكتب السماوية السابقة ـ ولا واحدا منها ـ معجزة للأنبياء السابقين عليهم السلام . بل كانت معجزاتهم لأقوامهم أمورا حسية بما يتلاءم وطبائع أقوامهم ومدركاتهم العقلية .

٣ ـ من هنا كانت تلك الكتب رهنا بحياة من حملها من الأنبياء . إذ أن مهمتهم كانت محلية محدودة بالزمان والمكان والأقوام ، ولم تتمتع بالشمول والعمومية . لأن هذا ليس من طبيعة رسالتها ، ودعوتها التي جاءت من أجلها .

أما القرآن الكريم . فهو كتاب الإسلام دين الله الخالد ، الذي يتمتع بالشمول والعمومية والكمال ، ومن ثم لم يكن رهنا بحياة المصطفى ﷺ ، بل هو موجه إلى كل إنسان على وجه الأرض ، في كل زمان ، وكل مكان طالما كانت الحياة والإنسان .

ثالثا ـ وثاقة النص القرآني :

أصبح من المؤكد علميا . أنه لا يوجد على وجه الأرض كتاب إلهي ثبتت بل تأكدت صحته ونسبته إلى الله تعالى غير القرآن الكريم .

ذلك أن الكتب الأخرى . قد لعبت بها أهواء الطامعين تحريفا ، وتغييراً ، وتبديلا .

أما القرآن الكريم فقد نقل إلينا بأدق منهج علمي لم يعرف إلا من خلال الأمة الإسلامية.

وأخيراً عرف العالم الحديث منذ سنوات فقط . ما يسمى بعلم « نقد

النص » وهو يعني بدراسة النص من حيث التأكد من صحته ، ونسبته إلى قائله .

وقد تأكد للأوربيين ـ مؤخرا ـ بمقتضى هذا العلم : أن القرآن الكريم هو الكتاب المقدس الوحيد الذي يحظى بصحة نسبته إلى الله تعالى ، وأن القرآن الكريم الذي تتلوه اليوم هو نفس القرآن الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى رسول الله ﷺ ، ثم بلغه الرسول إلى أصحابه كما هو .

ولا شك أن الناظر إلى مدى الجهد الذي بذله المسلمون في جمع القرآن الكريم أيام الخليفة الأول ـ أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ وأيام الخليفة الثالث ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ يدرك مدى عناية المسلمين بكتابهم ، ويتأكد لديه : أنه لم تعن أمة بكتابها مثلما عني المسلمون بقرآنهم .

إن تلك العناية بالقرآن الكريم لم تكن وقفا على حفظه وكتابته فحسب ، وإنما امتدت إلى الاجتهاد في فهم أسراره ، واستنباط الأحكام منه في كل ما يشغل المسلمين من قضايا ، مما أدى إلى وجود كثير من العلوم والمعارف مثل علوم القرآن ، والتجويد والقراءات ، والتفسير ، والفقه . وغير ذلك من العلوم الإسلامية .

الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة :

لقد ظهر أخيرا مؤلف فريد من نوعه للباحث والطبيب الفرنسي موريس بوكاي بعنوان « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » وهو يقدم دراسة ممتازة وشيقة للقرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث .

إنه يعتمد في تلك الدراسة على أساس من علم « نقد النص » ويريد أن يتثبت أولا من صحة النصوص التي بين أيدينا ، ومدى نسبتها إلى الله تعالى .

وفي هذا الصدد يقول في المقدمة « غير أن قصد هذه الدراسة يفرض سؤالا أولياً . لكنه أساسي . ما القيمة الصحيحة لهذه النصوص التي في حوزتنا اليوم ؟

وذلك يعني بالضرورة أن ندرس الظروف التي سادت تحرير النصوص وانتقالها إلينا[٥] .

ثم يقول موريس بوكاي عن حداثة عهدهم بهذا النوع من الدراسة النقدية « إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية شيء قريب العهد في بلادنا[٦] .

ومن خلال هذه الدراسة ، وبهذا المنهج العلمي يصل موريس بوكاي إلى الفروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية ، وفي ذلك يقول :

« وهناك فرق آخر بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة . ونعني بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية .

في حين أن الإسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل وثابت معاً .

« فالقرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، وقد كتب فور نزوله ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة ، وخاصة في شهر رمضان ، وقد رتب في سور بأمر من محمد صلى الله عليه وسلم . وجمعت هذه السور فور موت النبي صلى الله عليه وسلم . وفي خلافة عثمان . . ذلك لتصبح النص الذي نعرفه اليوم[٧] .

ثم يمضي موريس بوكاي في دراسته تلك ليقدم مزيداً من التفصيل والتوضيح لتلك الحقيقة المؤكدة . ومن ثم يعقد فصلا خاصا يتحدث فيه عن « صحة القرآن » يقول في مفتتحه « صحة القرآن التي لا تقبل الجدل ، تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ، ولا العهد الجديد . وقد عرضنا في الجزأين الأولين من هذا الكتاب لتعديلات العهد القديم والأناجيل ، قبل أن تصل إلينا بالحالة التي هي

(٥ ، ٦) دراسة الكتب المقدسة ص ٩ موريس بوكاي دار المعارف ١٩٧٨م

(٧) نفسه ص ١١

عليها اليوم

وليس الأمر كذلك بالنسبة للقرآن لسبب بسيط وهو أن القرآن قد ثبت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وسنرى كيف تمت عملية التثبيت هذه »[8]

ثم يمضي الرجل إلى غايته ليخلص بهذه الحقيقة الصادقة التي يحررها بقوله « لم يتعرض النص القرآني لأي تحريف من يوم أن أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا »[9]

رابعا : وحدة الفكر المادي

رابع تلك الاعتبارات التي تدفعنا نحو المنهج القرآني وحدة الفكر المادي ، فقد انتهينا في أبحاث سابقة إلى أن جميع المذاهب المادية ، والتيارات الإلحادية ، تجمع بينها وحدة فكرية ذاتية سواء في ذلك ما عرف منها في الماضي ، أو ما هو مطروح منها في الحاضر ، أو ما سيظهر في المستقبل فهي جميعها تنطلق من منطلق واحد ونستهدف غاية واحدة ، وتصدر وفق مبادىء ثابتة ، وأن ما يبدو بينها من اختلاف في الاتجاه والأبعاد ، والقضايا المطروحة ، فإنما هو اختلاف في المنهج حسب طبيعة الموضوع ، وليس اختلافا في الجوهر والمضمون والغاية[10]

وإذا ما تقرر هذا ، فإن القرآن الكريم « إذا ما تكلم عن الماديين فلا يفهم منه أنه يتحدث عن الماديين في زمانه ، أو عن الملحدين إبان نزوله وإنما يتحدث - بحق - عن الماديين في كل مكان ، وكل زمان

وإذا ما أضفنا إلى هذا حقيقة بقاء القرآن وحفظه وشموله وعموميته أصبح الأمر واضحاً وملزماً فالقرآن الكريم إذن يرصد الماديين ومن على شاكلتهم في

---

(٨) نفسه ص ١٥١

(٩) نفسه ص ١٥١

(١٠) يراجع في هذا كله كتابنا « الاسلام والفكر المادي » ٢ . في مواجهة الماديين »

كل حين .

خامساً : خامس تلك الاعتبارات وخاتمها أنه رغم التقدم العلمي المذهل . فإن العقل عاجز عجزاً مطلقاً عن إدراك كل شيء في الوجود .

نعم يستطيع العقل أن يقول كلمته في الأمور المادية بل عليه أن يعمل . جهده في إنتاجها وتصنيفها وتطويرها لخدمة الإنسان.

أما فيما يتعلق بما وراء المادة فعليه أن يحترم نفسه . لأن ذلك المجال فوق طاقته وليس في مكنته . ومن هنا كانت الكلمة الفاصلة في هذا الميدان ـ على سبيل المثال ـ إنما هي للخالق عز وجل . ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[11]

هذا هو التخصص ـ بمنطق البحث العملي الذي يخدم التخصص .

وهو دعوة قرآنية صريحة ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[12]

هذا هو منهجنا .

لهذه الاعتبارات وغيرها نتجه نحو المنهج القرآني . بل نلتزم به ، وندعو إليه . خاصة ، في مواجهة التيارات المادية العارمة . وذلك بوحدة موضوعية قرآنية شاملة .

هذا هو منهجنا الذي نعتز به ، ونعمل جهدنا في تحقيقه وتدعيمه . وهو منهج يعضد ما عليه الباحثون في مجابهتهم للمذاهب الهدامة .

---

(١١) سورة الملك الآية ١٤

(١٢) سورة النحل الآية ٤٣

المنهج القرآني

لم يأت القرآن الكريم على نسق التأليف المعروف : لأنه ليس مصنفاً في علم من العلوم . بحيث يخضع لمناهجها المعروفة في هذا العلم أو ذلك .

ولكنه كتاب الهداية الشاملة . يهدي للتي هي أقوم في شتى مجالات الحياة ، وأبعادها المختلفة ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (١٣)

ويستطيع المتدبر في القرآن الكريم . أن يستخلص القواعد الأصلية . التي انتهجها في معالجة القضايا المختلفة ومن أهم تلك الأسس التي يعتمد عليها المنهج القرآني ما يلي :

أولا : تحديد المقاصد :

ذلك أن القرآن الكريم يهدف إلى غاية هي أنبل الغايات على الإطلاق سواء ذلك في مجمله . أم في كل سوره الكريمة .

والمقاصد الأساسية التي يقصد إليها القرآن الكريم تتضح مما يأتي :

١ ـ المقصد الأول :

عقيدة التوحيد ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾(١٤)

تلك هي غاية الغايات من جميع الرسالات الإلهية ، والأديان السماوية في صورتها الصحيحة ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(١٥)

---

(١٣) سورة الاسراء الآية ٩ (١٤) سورة البقرة الآية ١٦٣ .

(١٥) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

ومنهجية القرآن الكريم في إرساء دعائم هذه العقيدة وتثبيتها وتأكيدها تسير في خطين أساسيين :

الخط الأول : تأسيس وبناء : يعني يغرس هذه العقيدة في النفس من منطلق الفطرة النقية الطاهرة .

والخط الثاني : خط دفاعي . يعني يدحض الشرك والقضاء عليه .

بأنواعه المختلفة ، واقتلاع جذوره من النفوس وتطهيرها من أدرانه ورد افتراءاته وضلالاته .

٢ ـ المقصد الثاني :

العبادة الصحيحة لله الواحد الذي لا معبود بحق سواه . وهنا تتحقق الغاية من خلق الإنسان .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(١٦)

ومن هنا كان الأمر التكليفي لسائر بني الإنسان ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾(١٧)

ومن هذا المنطلق كانت الأوامر التكليفية بالعبادات المختلفة في منهج محكم متكامل .

٣ ـ المقصد الثالث :

التشريع المحكم الذي يرسم للإنسان دستور حياته . في معاملاته مع أخيه الإنسان : فيضع الحدود الفاصلة في تلك المعاملات بين الحلال والحرام ثم يشرع العقوبات الزاجرة والرادعة التي تتكافؤ تماما مع الجرائم المقترفة بما يحقق للإنسانية أمنها وسلامتها ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾(١٨) .

(١٦) سورة الذاريات الآية ٥٦   (١٧) سورة ، البقرة الآية ٢١ .

(١٨) سورة المائدة الآية ٤٨ :

٤ ـ المقصد الرابع :

الأخلاق : الفاضلة التي بها يكون الإنسان إنسانا كريما ـ يحب الفضيلة ويكره الرذيله ، ينشد الخير ، وينفر من الشر .

تلك هي العناصر الأساسية في القرآن الكريم ، وهي كلها تخدم الإنسان في دينه ونفسه وماله وعرضه وعقله .

وقد عرض القرآن الكريم لهذه المقاصد تارة بالتفصيل وأخرى بالإجمال . وحسبنا أن نشير إلى تلك الآية الكريمة الجامعة . إنها آية « البر » من سورة البقرة وهي قوله تعالى ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[١٩]

يقول الأمام البيضاوي في تفسيره « والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها ، دالة عليها صريحاً أو ضمنا . فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس .

وقد أشير إلى الأول بقوله : من آمن بالله الى والنبيين » ، وإلى الثاني بقوله : وأتي المال ؛ إلى وفي الرقاب . وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة إلى آخرها .

ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى إعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق وإليه أشار بقوله عليه السلام . من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » ا هـ [٢٠] .

(١٩) سورة البقرة الآية ١٧٧

(٢٠) راجع تفسير البيضاوي . سورة البقرة .

ثانياً : أما المنهج الذي يسلكه القرآن الكريم في معالجة هذه المقاصد فهو يعتمد على :

١ ـ العلم التام بطبائع النفوس والأشياء .

٢ ـ إيضاح الحقائق واضحة نقية .

٣ ـ بيان ما يترتب على هذه الحقائق من خير أو شر .

٤ ـ رفض المزاعم المضلة وبيان تهافتها وآثارها الضارة . وخطرها على الإنسان في دينه ودنياه .

٥ ـ دعوة العقل إلى التفكر الصحيح :

٦ ـ إثارة الفطرة والوجدان النبيل في الإنسان .

ثالثا : أما الأسلوب القرآني فهو يوجه إلى كل إنسان يخاطب فيه فطرته وعقله وقلبه : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٢١] .

ومن هنا نرى فيه :

الترغيب والترهيب .

الوعد والوعيد .

القصة والمثل .

العبرة من التاريخ وسير الأمم الماضية .

رابعا : أما المنهج العام في الدعوة إلى الله تعالى فيعتمد على :
الحكمة .

الموعظة الحسنة .

المجادلة بالتي هي أحسن .

---

(٢١) سورة القمر الآية ١٧ .

ويجمع ذلك كله قوله تعالى « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[٢٢] .

هذا هو المنهج القرآني ـ فيما ترى ـ وتلك مقاصده وأبعاده فيما تتصور إنه منهج يتميز بالسهولة واليسر . ومعالجة القضايا معالجة موضوعية مع العلم التام بطبائع الإنسان والأشياء وبهذا المنهج الواضح يتعلم المسلم إسلامه .

وبهذا المنهج أيضا يشق المسلم طريقه في الحياة ويتصدى لمجابهتها بكل ما فيها من تحديات مادية أو غير مادية .

بعد هذا الإيضاح للمنهج العام في القرآن الكريم ننتقل إلى إيضاح منهج القرآن فيما يتعلق بموضوعنا على وجه الخصوص .

---

(٢٢) سورة النحل الآية ١٢٥

المنهج النقدي في القرآن الكريم

يعتبر الإمام الغزالي ٥٠٥ هـ مضرب الأمثال في المنهج النقدي فإنه حينما عزم على هدم الفلسفة ونقض دعائمها .

لم يقم بحملته تلك من فراغ ، بل عايش الفلسفة ، معايشة كاملة . وكتب فيها كتابه « مقاصد الفلاسفة » . حرره بدقة وأمانة .وصور آراء الفلاسفة بأدق ما تصور به .

ومن هنا كان هذا الكتاب من أهم مراجع الفلسفة . يعبر عنها بصدق . ويخطيء بعض الباحثين إذا ما ظن أن هذاالكتاب يعبر عن فكر الغزالي . ويصور آراءه .

بعد ذلك جاء الغزالي وفق منهجه النقدي ليهدم آراء الفلاسفة التي حررها في كتابه « مقاصد الفلاسفة » وهو في ذلك يستخدم سلاحهم في هدم أفكارهم ونقضها ومن هنا ألف كتابه « تهافت الفلاسفة » .

ليس معنى ذلك إننا نسلم بكل ما قرره الإمام الغزالي في نقده . ولكنا نسلم بمنهجه النقدي الممتاز .

هذا ما اشتهر به الإمام الغزالي . وهو في الحقيقة منهج قرآني . فريد في بابه .

ذلك أن القرآن الكريم حينما يعرض لوجهات النظر المضادة . فإنه يعرضها أولا كما يزعمها أصحابها بصدق وأمانة . ثم يكر عليها بالنقض . فينسفها نسفا لأنها تتعارض مع الحقائق العليا .

ولا تتلاءم مع الفطرة النقية الطاهرة .

ولا تتفق مع القيم الإنسانية الكريمة .

بل تخدم الغرائز المادية في الإنســـان.

وتمكن الفساد والطغيان .

ولنضرب لذلك مثلا من واقع صنيع المشركين مع رسول الله ﷺ ،
لقد حدث أن جاء العاص بن وائل أو أبي بن خلف بعظام بالية هشة إلى مجلس رسول الله ﷺ . ثم قال يا محمد : أترى أن الله يحي هذه العظام بعد ما بليت ورمّت ، فقال له الرسول عليه السلام ، نعم يميتك ثم يحييك ويبعثك ويدخلك جهنم :

هذه حادثة وقعت ، ولكنها لم تمر عبثا ، بل رصدها القرآن الكريم ، وسجلها بصدق وأمانة . ثم كر على تلك الدعوى المزعومة ـ دعوى إنكار البعث ـ بالنقض وقدم الدليل الحسي والعقلي على أن البعث حق وأنه واقع لا محالة .

لقد تكفلت سورة « يس » ـ وهي مكية ـ برصد هذه الحادثة . وسجلتها قرآنا يتلى ، وتلاوته عبادة ، وفيها يقول الله تعالى :

﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ﴾

قال : من يحي العظام وهي رميم .

قل : يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .

الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون .

أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم .

إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون .

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .[٢٣]

الدعوى المزعومة « من يحي العظام وهي رميم » استفهام انكاري في تحد سافر .

ولكن الجواب حق لا ينكره إلا مكابر .

« قل يحيها الذي أنشأها أول مرة » أي أن الذي خلقها ابتداء ، هو الأقدر على إعادتها ـ وتلك حقيقة واقعة بمقاييس البشر ، فإن من أنشأ الشيء أول مرة ، هو الأقدر على أن ينشئه بعد ذلك مرات ومرات .

أما إذا كان ذلك الخالق هو الله تعالى أصبحت المسألة واضحة ـ لأنه بكل خلق عليم .

ثم بعد ذلك تقدم السورة دليلا حسيا ملموسا تعرفه البيئة العربية . وهو خلق الضد من الضد . النار من الشجر الأخضر .

« الذي جعل لكم من الشجر نارا فإذا أنتم منه توقدون .

ثم يقرر القرآن الكريم : أن المشكلة ليست ، في بعث الحياة في هذه العظام فحسب ، بل إن الخالق الذي خلق السموات والأرض ، هو وحده القادر على أن يخلق مثلهم ، وهو الخلاق العليم ، إن المسألة عنده سبحانه وتعالى لا تعدو أن تكون أمرا بين الكاف والنون « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

ثم تختتم الآيات الكريمة بالتنزيه المطلق لله وحده . مالك الملك والملكوت منه كل شيء وإليه ينتهي كل شيء « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » هذه صورة تطبيقية للمنهج النقدي في القرآن الكريم وهو

(٢٣) سورة يس : ٧٨ ـ ٨٣

المنهج الذي نلتزمه ـ بعون الله ـ في مواجهتنا للتيارات المادية .

إنه منهج يدعو إلى :

١ ـ تحرير كلام الخصم بصدق وأمانة .
٢ ـ مواجهة الدعوى بالحجة الصحيحة المفحمة .
٣ ـ تقديم الدليل الحسي والعقلي .
٤ ـ يستهدف الحق والخير .
٥ ـ يدعو إلى الفكر الهادىء بعيدا عن الهوى المغرض .

من هنا كانت دعوى القرآن إلى المشركين بأن يتجهوا إلى الفكر الصحيح بعيدا عن الأهواء والأغراض ـ وليتفكروا في أمر رسول الله ﷺ حتى يصلوا إلى الحق .

وفي هذا يقول الله تعالى في سورة سبأ ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾[٢٤] .

(٢٤) سبأ ـ ٤٦ .

الفصل الثاني

الماديون في القرآن

* البداية من الانسان .
* خصائص نفسية وأخلاقية .
* معتقدات موروثة .
* صور مادية .
* بين الأمس واليوم

البداية من الإنسان

حينما نتعرض للبحث عن « الماديين في القرآن الكريم » فإن ذلك يفرض علينا ـ وفق المنهج القرآني ـ أن تكون البداية من الإنسان أولا : نغوص في أعماقه ـ ونحاول التعرف على كوامنه وأسراره ، حتى نستطيع ـ من خلال الرؤية القرآنية الصحيحة ـ أن نقف على حقيقة ذلك الصنف الخبيث من البشر ، وهل ما يوصم به من المادية ـ أمر عارض ، أو هو مقتضى النزعات النفسية الدنيئة حينما ينصرع تحت ضغطها الإنسان ؟

فيصبح ماديا في عقيدته .

ماديا في أخلاقه .

ماديا في سلوكه .

بمعنى : أنه في عقيدته لا يؤمن بشيء في الوجود غير محسوس ، وأن كل ما يدرك بالحس المباشر أو غير المباشر فهو موجود .

لأن الحواس ـ في نظره ـ هي الوسيلة الوحيدة الموصلة إلى العلم والمعرفة .

وأن المعرفة نفسها حسية جزئية .

من هنا لا يعترف الماديون بالله ، وإن اعترفوا بإله فإنما هو إله مجسد محسوس ، حيوان ، أو صنم أو إنسان .

وكما أنه مادي في عقيدته هو كذلك في أخلاقه لأن الخلق ملكة نفسية وتلك الملكة وليدة مؤثرات مختلفة ، أعظمها أثرا ، وأشدها خطرا ، العقيدة ، مما يسوغ لنا القول ، بأن الأخلاق بنت العقيدة وثمرتها .

ومن هنا إذا كان المادي لا يؤمن بغير المحسوسات في عقيدته : فإنه ـ كذلك ـ لا تصدر أخلاقه إلا عن أنانية وحشية ، ونفعية بغيضة . تتفق وأهواءه ، وترضي غروره وشيطانه . والغاية ـ عنده ـ تبرر الوسيلة .

وما دام المعتقد ماديا ، والأخلاق مادية كذلك فإن السلوك العملي لن يشذ عن هذا الخلق وذاك المعتقد ، ذلك لأن السلوك هو الترجمة العملية لما عليه المرء من

عقيدة وخلق .

على ضوء هذا كله نعيش مع القرآن في مسيرتنا هذه .

ولكن بصورة مجملة ، تحقق غرضنا ، وبغير إسهاب يخرجنا عن موضوعنا .

ترى : ماذا يقول القرآن الكريم عن الإنسان . من حيث النشأة والتكوين النفسي والمادي ؟ .

بادئ ذي بدء ينبغي أن تعلم :

أن القرآن حسبما أشرنا إليه سلفاً هو كتاب الله الخالق إلى الإنسان المخلوق .

فهو موجه إلى الإنسان ليرسم له منهاج حياته في أبعادها المختلفة :

مع نفسه ومقومات ذاته وشخصيته.

ومع الله خالقه ومعبوده .

ومع غيره من بني جنسه .

ومع العوالم الأخرى التي يعايشها : طبيعية كانت أو حيوانية ، أو نباتيه .

بديهي إذن . أن يعني القرآن عناية تامة بالكشف عن مكنونات النفس البشرية ومقوماتها ، بصورة تحقق الغرض المطلوب منها ، ولا تجهد الإنسان بالبحث فيما وراء ذلك . ولا تكلفه بما لا يطيق ، وهذا منتهى الرحمة ، ويسر التكليف ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾[1] .

« سورة الإنسان » :

من هذا المنطلق ترى القرآن الكريم ، يتضمن سورة خاصة باسم : « الإنسان »[2] وفيها يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ .

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) تحت رقم ٧٦ من المصحف الشريف .

(٣ - في مواجهة الماديين)

فجعلناه سميعا بصيرا .

إنا هديناه السبيل إما شاكرا و إما كفورا .

إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا .

إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا .

تكشف هذه الآيات الكريمة عن حقيقة الإنسان في خلقه وتكوينه .

وأنه لم يكن شيئا مذكورا في الوجود . بل كان في العدم المحض . ثم أصبح حقيقة واقعة في هذا الكون بقدرة الله الخالق عز وجل .

أما مادة الخلق والتكوين في بني الإنسان فهي تلك الخلية الأولى : التي عبّرت عنها الآية الكريمة « بنطفة أمشاج » أي نطفة ذات عناصر مختلفة اختلط بعضها ببعض فأضحت وحدة متكاملة .

يقول ابن كثير في تفسيره « من نطفة أمشاج » أي أخلاط .

والمشج والمشيج « الشيء المختلط بعضه في بعض .

قال ابن عباس : يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، وحال إلى حال ، وقال عكرمة ومجاهد : الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة »[٣] .

نعم هذا صحيح . ولكن الابتلاء فيما قررته الآية الكريمة ليس وقفا على مجرد تلك الأخلاط من ماء الرجل وماء المرأة :

إن المسألة ـ فيما نفهم ـ أبعد من ذلك وأعمق لأن تلك الأمشاج بهذه الصورة أمشاج مادية . ولكنها ترجع في الحقيقة إلى تلك المادة الطينية التي خلق

---

(٣) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث :

منها الإنسان الأول : أبو البشر آدم عليه السلام ، بطريق مباشرة ، ! وهي أيضا نفس المادة التي يخلق منها بنو آدم بطريق غير مباشر .

إن تلك المادة لها خصائصها المختلفة تبعا للعناصر التي تتركب منها . ومن ثم لها تفاعلاتها وتأثيرها وضغطها في ذلك الكائن الحي « الإنسان » .

فاذا أضفنا الى ذلك : أن الإنسان ليس وقفا على تلك الأخلاط المادية فحسب ، بل هو قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله :

حينئذ يصبح الأمر واضحا . وكيف أن الابتلاء ـ متمثلا في الكليف وتحمل المسئولية ـ ترتب على خلق الإنسان من تلك الأمشاج المختلفة ، والعناصر المتضاربة ،

ويتضح من هذا . أنه لو كان الانسان مخلوقا من عنصر واحد فحسب لما كان للتكليف معنى . بل يصبح التكليف عبثا .

لأنه ـ والأمر كذلك ـ يصدر في سلوكه وخلقه وعقيدته عن طبيعة واحدة . تفتقد الإرادة والاختيار : وهما مناط التكليف والمسئولية :

حسبنا بعد ذلك ان نشير ـ فقط ـ إلى المراحل الأولى في خلق الانسان .

كما سجلها القرآن الكريم في بعض آياته البينات .

في سورة (ص) وهي مكية يقول الله تعالى :

إذ قال ربك للملائكة إن خالق بشرا من طين .

فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[4] .

وفي سورة « السجدة » وهي مكية أيضا يقول الله تعالى :

---

(٤) ص : ٧١ ، ٧٢

﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم .

الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .

ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[5] .

هنا ملاحظة ينبغي أن نشير إليها ، وهي خاصة بذلك التكريم الذي حظي به الإنسان الأول سيدنا آدم عليه السلام :

فقد نعم وسعد بسجود الملائكة له سجود احترام وتقدير ، وليس بسجود العبادة والطاعة . بل هو طاعة وعبادة لله وحده امتثالا لأمره تعالى : وهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

الملاحظ أن أمر الملائكة بالسجود لآدم ـ حسبما أشارت إليه الآية السابقة ـ جاء مترتبا على نفخ الروح فيه ، وتسوية الله إياه . « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » :

ومن هنا : جاء التعبير : ـ « إذا » التي تفيد تحقق وقوع الجواب فور وجود شرطه :

كما جاء الجواب . بصيغة الأمر : « فقعوا » . ليفيد السجود الفوري لآدم : وهذا المعنى القرآني لم يكن ليتحقق فيما لو قيل ـ مثلا ـ اسجدوا له .

خليفة الله في أرضه :

لقد حظي الانسان إذن بتكريم الله إياه لما حباه الله به من تلك النفخة الربانية الكريمة : التي هي منطلق فطرته النقية الطاهرة ، ومناط استعداده لتلقي

---

(٥) السجدة ٦ ـ ٩

علم الله عز وجل :

ومن هنا استحق أن يكون في مركز الخلافة عن الله في الأرض لينشر فيها العدل والأمن والطمأنينة والسلام :

رغم ما فيه من عوامل الشهوة ، ودوافع الغضب ـ التي تدفعه ـ إذا ما حاد عن طريق الله ـ إلى سفك الدماء ، والإفساد في الأرض ، وفي ذلك تقول سورة البقرة » .

﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .

قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾[٦] .

وقد منح الله تعالى خليفته كل مقومات الخلافة . وكل الإمكانات التي تمكن له من أداء رسالته ، سواء في ذلك ، عناصره الذاتية ومقوماته الشخصية ، حسبما أشارت إليه آية السجدة السابقة ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ .

وسواء في ذلك ـ أيضاً تسخير كل ما في هذا العالم لخدمة الإنسان . وحسبنا في ذلك قوله تعالى من سورة النحل وهي سورة مكية .

﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين .

والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون .

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون .

وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم .

---

(٦) البقرة : ٣٠

والخيل والبغال والحمير لتركبوها و زينة و يخلق مالا تعلمون .

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين

هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون .

ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

إلى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[٧]

إن هذه المعاني الكريمة وتلك النعم الجليلة قد تحدث عنها القرآن كثيرا في سوره المكية ومنها الأنعام والأعراف ، الرعد . إبراهيم ، يس ، الزمر ، الزخرف ، الجاثية ، النازعات ، عبس ، وغير ذلك كثير .

أما السور المدنية فمنها : البقرة .

وهذه العناية من القرآن الكريم بتكريم الإنسان ، وتسخير كثير من الموجودات لأمره دفعت ابن رشد إلى أن يرى فيها دليلا على وجود الله تعالى أطلق عليه اسم « دليل العناية »[٨] .

شيطان مارد :

عجيب أمر الإنسان . إنه رغم كل ذلك التكريم الإلهي له :
في خلقه وتكوينه .

وفي رعايته والعناية به .

وفي سجود الملائكة له

(٧) النحل : ٤ - ١٨

(٨) يراجع في ذلك الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد

وفي تسخير كل ما في الكون لخدمته ورفاهيته .

وفي احتلاله مركز الخلافة عن الله في الأرض .

إنه رغم كل ذلك ، هو المخلوق الوحيد الذي يتمرد على خالقه ، ويتنكر له ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾[9] .

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾[10] .

لقد بلغ التمرد بالإنسان أن أدعى منازعة الله في قدرته فقال ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾[11] .

بل أكثر من ذلك : فقد ادعى منازعته ـ سبحانه وتعالى ـ في ربوبيته

﴿ فحشر فنادي . فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[12]

لقد خرج لانسان ـ بتمرده ـ على وحدة الكون كله في السجود لله تعالى » .

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس

وكثير حق عليه العذاب .

ومن يهن الله فماله من مكرم

إن الله يفعل ما يشاء ﴾[13] .

القاعدة العامة : أن كل شيء في الوجود يسبح بحمد الله خالق الوجود : ﴿ تسبح له السموات السبع

---

(9) النحل : ٤

(10) يس : ٧٧

(11) البقرة : ٢٥٨

(12) النازعات : ٢٣ ، ٢٤

(13) الحج : ١٨

والأرض ومن فيهن .

وإن من شيء إلا يسبح بحمده

ولكن لا تفقهون تسبحهم .

إن كان حليما غفورا ﴾[١٤] .

تلك هي الحقيقة في صورتها الواقعة ولكن العنيد الوحيد من هذا العالم المنظور ـ هو الإنسان .

﴿ إن الانسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[١٥] .

---

(١٤) الاسراء : ٤٤

(١٥) العصر : ٢ ، ٣

لماذا يتمرد الإنسان ؟

الإنسان - كما أشرنا - قبضة من تراب الأرض ، ونفخة من روح الحق ، ولما كان - بهذه المثابة - من الخلق والتكوين ، فإنه - بلا شك - يجمع بين الخصائص المميزة لكل من العنصرين الأساسيين في تكوينه .

ومن ثم يصبح من الطبيعي : أن يكون له من الروح لطفها وخفتها ، وشفافيتها ونورها ، وانفتاحها على الاملأ الأعلى .

كما يكون له من المادة الطينية جمودها وثقلها ، وظلمتها وكدرها .

ومن هنا يعيش الإنسان حياته بين تلك الصراعات داخل نفسه وفي أعماقها . وكيف يوفق بين حاجياتها ومتطلباتها ، ولأي من هذه العناصر كانت الغلبة كان الانسان في فكره وعقيدته ، وأخلاقه وسلوكه .

والذي يعنينا هنا : أن الإنسان إذا ما اتصرع تحت ضغط غرائزه الماديه اندفع يلهث وراء أهوائه وشهواته - وحيئنذ يصبح « ماديا » ومن هنا يكون التمرد سمته المميزة له :

إنه يتمرد على خالقه سبحانه وتعالى .

ويتمرد على قيمه الإنسانية الرفيعة .

ويتمرد على الأخرين من بني جنسه .

بل يتمرد على كل شيء في الوجود من حوله .

إن هذا التمرد خاصية طبيعية لتلك المادية التي تغمره في ذات نفسه . وتملك عليه حسه وفكره ووجدانه .

إنه وليد عوامل نفسية وفكرية واجتماعية . عوامل نفسية ، تكمن في ثورة

غرائزه وتمزقها ، وهيجانهـا وعـدم انسجامهـا ، فيصبـح عبـد أهوائـه ونزواتـه ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾[16]

وعوامل فكرية ـ تكمـن في جحـود نعمـة العقـل . وعـدم استعمالـه ، وتوجيهه فيما خلق من أجله . ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون ﴾[17]

وعوامل اجتماعية تكمن في البيئة وما تعج به من عادات سيئة وتقاليد قبيحة ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكِداً ﴾[18] .

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾[19] .

﴿ كذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[20] .

---

(16) الجاثية : ٢٣
(17) الأعراف : ١٧٩
(18) الأعراف : ٥٨
(19) البقرة : ١٧٠
(20) الزخرف : ٢٣

خصائص نفسية
وسمات أخلاقية

لقد كشف القرآن الكريم للإنسان ذات نفسه في جانبيها : الخير والشر . وأوضح له العوامل المؤثرة في تكوين شخصيته السوية . كما بين له الأسباب التي تقف وراء شخصيته المرضية .

ومن هنا نرى القرآن الكريم قد أفاض في الكشف عن الخصائص النفسية ، والسمات الأخلاقية التي يتميز بها الماديون من بني الإنسان .

نجد هذا واضحا على وجه الخصوص . في السور القرآنية المكية . لأنها قد عنيت ـ فيما عنيت ـ بغرس عقيدة التوحيد . وتطهير النفوس من أدران الشرك والمادية الوثنية والصنمية .

وفي السور المدنية نجد هذا أيضا ـ خاصة حينما يتعرض القرآن للكشف عن طوائف المجتمع الإنساني ، وموقفها من عقيدة التوحيد . وهنا يعني القرآن ـ بخاصة ـ بالكشف عن ذلك الصنف الخبيث المتلوي والمتلون كالحرباء « المنافقين » حيث أن هذا الصنف لم يكن له وجود بمكة المكرمة قبل الهجرة النبوية المطهرة . أما بعد الهجرة إلى المدينة المنورة فقد أصبح للإسلام دولة . وهنا ظهرت تلك الطائفة الخبيثة من البشر .

وفي مسيرتنا مع القرآن الكريم ، للتعرف على تلك الخصائص النفسية والسمات الأخلاقية المميزة للماديين نحاول جهدنا أن نركز على أهم تلك الخصائص ، وأشدها خطرا على الإنسان والحياة ـ ومن ذلك ما يأتي : ـ

أولا : الانصراع تحت ضغط الهوى والشهوة : وفي ذلك تقول سورة الأعراف . وهي مكية :

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

ولو شئنا لرفعناه بها

ولكنه أخلد إلى الأرض . واتبع هواه

فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[٢١] .

وفي سورة « محمد » وهي مدنية

﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾[٢٢]

إن الماديين لم يقفوا عند هذا الحد من اتباع الهوى والشهوة . بل وصل بهم الحال إلى حد التأليه أو هو أمر يصم آذانهم عن كل خير ، ويعمي أبصارهم عن كل هدى ، وبطبع قلوبهم على الكفر والضلال ، وفي هذا تقول سورة الجاثية وهي مكية :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾[٢٣]

إن التمتع بطيبات الحياة أمر تفرضه طبيعة الإنسان . ويقره دين الله

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد .

وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين .

---

(٢١) الأعراف : ١٧٦

(٢٢) محمد : ١٤

(٢٣) الجاثية : ٢٣

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للـذين آمنـوا في الحياة الـدنيا خالصـة يوم القيامـة كذلك نفصـل الآيات لقـوم يعلمون[٢٤] .

هذا هو منهج الله : التمتع بطيبات الحياة ، إنها نعم الله يتمتع بها الإنسان فيحمده عليها ، ليبارك له فيها ، أما أن تنعكس الحال فتصبح تلك المتع غاية في ذاتها ، بدافع الهوى والشهوة فحسب فذلك شأن الماديين وحدهم .

ثانيا : فعل الفحشاء والإصرار عليها :

إن فعل الفحشاء والإصرار عليها أمر لازم لمن ينصرع تحت ضغط غرائزه ، ويتخذ إلهه هواه ، وهذا ما يجري عليه الماديون جيلا بعد جيل :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها .
قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾[٢٥]

تلك هي سمة المجتمع المادي في أبشع صورها كما يصوره القرآن في أكثر من موضوع عن قوم لوط عليه السلام :

﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾[٢٦] .
وفي سورة « العنكبوت » وهي مكية :
﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بهـا من أحـد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾[٢٧]

ومن هنا يتضح أن عمل قوم لوط عليه السلام لم يعرف في البشرية من قبل ، وهو أشنع فاحشة عرفها الإنسان .

---

(٢٤) الأعراف : ٣١ ، ٣٢
(٢٥) الأعراف : ٢٨
(٢٦) الأعراف : ٨١
(٢٧) العنكبوت : ٢٨ ، ٢٩

ثالثا : النفور من ذكر الله :

لما كان الماديون ينكرون وجود الله الواحد الأحد ، فإنهم ينفرون من ذكر الله ؛ وفي ذلك تقول سورة « الإسراء » وهي مكية :

﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ، لو اعلى أدبارهم نفورا ﴾[٢٨]

وفي سورة « الزمر » وهي مكية أيضا :

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾[٢٩]

رابعا : الاستهزاء بالأنبياء والمرسلين :

وتلك سمة الماديين في مواجهة الأنبياء والمرسلين وذلك دينهم ومن يطالع قصص الأنبياء حسبما سجله القرآن الكريم يجد ذلك واضحا جليا تقول سورة الأعراف عن موقف الماديين من نوح عليه السلام :

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . فقال يا قوم بدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

(فماذا كان جوابهم ؟) **﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ﴾[٣٠]**

وهذا هو موقف الماديين من هود عليه السلام ، كما تحكيه نفس السورة .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾[٣١] .

أما موقفهم من المصطفى (ﷺ) ، فقد رموه بالجنون والسحر والكذب إلى غير ذلك من صفاتهم الدنيئة التي حاولوا أن يخلعوها على رسول الله عليه السلام ،

---

(٢٨) الاسراء : ٤٦
(٢٩) الزمر : ٤٥
(٣٠) الاعراف : ٦٠ ، ٦١
(٣١) الأعراف ٦٤ ، ٦٦

وحسبنا تلك الإشارة على أمل أن نفصل القول في ذلك تفصيلا في موضعه من « مواجهة الماديين للأنبياء والمرسلين » إن شاء الله .

وإذا كان الماديون ينفرون من ذكر الله ، ويستهزؤن بأنبيائه ورسله فليس غريبا عليهم أن يهزأوا بالمؤمنين من عباد الله .

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾
﴿ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ .
﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾
وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾[٣٢] .

خامسا : الغرور بالقوة المادية .

الغرور صفة مرذولة تدفع صاحبها إلى التكبر والاستعلاء وحب السيطرة على الآخرين وإذا ما صاحب ذلك الغرور عوامل مادية في المال والأولاد والجاه والسلطان فإن المغرور ـ حينئذ ـ لا يقف عند حد تلك الصفات السيئة فحسب ، بل يندفع إلى ما هو أشنع منها وأبشع ، إذ يتخذ من نفسه إلها يعبد .

ألم تر إلى فرعون حيث قال « أنا ربكم الأعلى » والماديون في كل زمن دفعهم الغرور إلى محاربة الأنبياء والمرسلين بالقوة المادية المزعومة .

في القصص القرآني تقرأ ـ فيا تقرأ ـ سورة الشعراء وهي مكية حيث ترى تكذيب الماديين للأنبياء والمرسلين .

« كذبت قوم نوح المرسلين » .
« كذبت عاد المرسلين »
« كذبت ثمود المرسلين »
« كذبت قوم لوط المرسلين »
« كذب أصحاب الأيكة المرسلين » .

---

(٣٢) المطففين : ٢٩ ، ٣٢

إن هؤلاء الأقوام أمثلة للماديين في كل زمان ، وسنقف ـ بعون الله تعالى ـ على ذلك بشيء من التفصيل عند عرضنا للصور المادية في المجتمعات البشرية .

وحسبنا أن تشير إلى تلك السمة البارزة في الماديين ، والتي تعبر عنها سورة « سبأ » ـ وهي مكية ـ بقوله تعالى .

﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها ، إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾[٣٣] .

إن القوة المادية ـ بصورها المختلفة ـ هي مقياس التفاضل بين الناس من وجهة النظر المادية الصرفة ، ومن هنا كان موقف الماديين من الأنبياء بعامة ومن محمد بن عبد الله عليه السلام بخاصة .

يقول الله تعالى في سورة الزخرف : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[٣٤]

وبهذا المنطق ، واجه قوم « بلقيس » ـ ملكة سبأ ـ رسالة سليمان عليه السلام ، تصور ذلك سورة النمل بقوله تعالى ﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم .

إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم .
ألا تعلوا على وأتوني مسلمين .
قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري . ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون .
قالوا نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾[٣٥] .

---

(٣٣) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ .
(٣٤) الزخرف : ٣١ .
(٣٩) النمل : ٢٩ ، ٣٣ .

سادسا : البخل :

البخل من أشنع الصفات المرذولة والتي تنم عن مدى ما يتمتع به الماديون من أنانية وأثرة وحب للذات ، ومن هنا يصدر الماديون في تصرفاتهم عن فردية بغيضة ، لا تعرف روح التعاون ، وحب الآخرين .

والبخل أن تمسك يد العون والمساعدة عن الآخرين ، سواء في ذلك المعونة المادية أو المعنوية . ولكنه اشتهر - على الأخص - في الأمور المادية .

وأشنع أنواع البخل : أن تبخل بما لا تملك ، ومن هنا كان الأمر التكليفي بالإنفاق في سبيل الله مصحوبا بتوضيح أن المال مال الله ، فهو المالك الحق للانسان وما يملك من مال ، والإنسان مستخلف عنه في هذا المال .

فهو إذ يأمر بالانفاق فإنما يأمر بالإنفاق من ماله ، وما على الوكيل عنه إلا أن ينفذ هذا الأمر ، وإلا لا يصلح لتلك الوكالة عن الله في ماله .

إنك تجد هذا واضحا في القرآن الكريم ، فتقرأ قوله تعالى :

﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾(٣٦)

وتقرأ ﴿ وأنفقوا من ما رزقكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴾(٣٧) .

ورغم ذلك فإن الماديين لا يعرفون هذه المعاني الكريمة ، وتلك سمة بارزة في أخلاقهم وسلوكهم .

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾(٣٨) .

---

(٣٦) الحديد : ٧

(٣٧) المنافقون : ١٠ .

(٣٨) يس ٤٧ .

ويحسب الماديون بعامة أن هذا المال الذي ينعمون فيه إنما هو خير لهم . ولكن الأمر ، في حقيقته ليس كما يظنون : وفي هذا تقول : سورة آل عمران .

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم .
بل هو شر لهم .
سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة .
والله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير ﴾[٣٩] .

والبخل بهذه المثابة : لأنه خروج على الفطرة النقية الطاهرة التي جبل عليها الإنسان . من حب للخير . ونفع للآخرين ، بروح التآلف والتعاون . تدعيما للمجتمع الإنساني بأسره :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾[٤٠] .

ولهذا كان البخل من أمارات التكذيب بدين الله .
﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم .
ولا يحض على طعام المسكين : فويل للمصلين .
الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾[٤١] .

سابعا : العناد والمكابرة :

الإنسان حينما يبحث عن الحقيقة ، فإنه يطلبها حيث يجدها . ويأخذ بها أني يراها ، فيهدأ نفسا ، ويستريح بالا . ولكن الماديين صنف آخر . يرون الحقيقة ناصعة جلية ويعمون عنها ، ويصمون آذانهم نحوها .

(٣٩) سورة آل عمران : ١٨٠ .
(٤٠) سورة الحجرات : ١٣
(٤١) سورة الماعون من ١ ـ ٧

﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[42] .

الماديون في هذا يصدرون في سلوكهم عن عقد نفسية مريرة . تدفعهم الى العناد في الحق .

والمكابرة والمجادلة بالباطل . والإصرار عليه بكل صلف وغرور . تصور ذلك سورة الأعراف حيث تقول :

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها .

وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا .

وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا .

ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين ﴾[43] .

إنهم يعمون عن الدلائل الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، التي تؤكد للإنسان ، قدرة الخالق : ووحدانيته المطلقة .

ومن هنا ، فإنهم ينصرفون عن طريق الخير والرشد ، ويهرعون إلى سبل الغي والشر .

هذا هو سلوكهم أما في أقوالهم . فلا تسمع إلا المكابرة والمجادلة بالباطل .

﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾[44] .

وقد يماري الإنسان ، ويجادل في الحق بغير علم ، ولكن عن هوى ؛ ورغبة في الشر والفساد .

---

(٤٢) سورة الأنفال : ٢٣

(٤٣) سورة الأعراف : ١٤٦ .

(٤٤) غافر : ٤

تقول سورة « الحج » وهي مدنية .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم . ويتبع كل شيطان مريد ﴾(٤٥)

ثم تقول ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم
ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾(٤٦) .

هذا المعنى توضحه سورة الحج المدنية : من مجادلة الماديين في الحق بغير علم .

وانصرافهم عن طريق الخير بهدف إضلال الآخرين معهم ، وحكم الله فيهم بالخزي في الدنيا . وعذاب في الآخرة .

هذا المعنى قد قررته من قبل سورة غافر المكية حيث تقول :

﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم .
كبر مقتا عند الله ، وعند الذين آمنوا .
كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾(٤٧)

ثم تلفت سورة غافر نظر الرسول (ﷺ) : وكل مؤمن - إلى الدافع النفسي الذي يكمن وراء المكابرة والمجادلة في نفوس الماديين الملحدين .

وهو « الكبر » الذي يدفع صاحبه إلى غمط الحق ، وظلم الناس ، ولما كان الأمر كذلك ، نرى السورة الكريمة تردف - بعد هذا البيان مباشرة - الأمر بالاستعاذة بالله تعالى من هذا المنكر : ومن هؤلاء الأشرار المفسدين .

﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم .
إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه .
فاستعذ بالله ، إنه هو السميع البصير ﴾(٤٨) .

---

(٤٥) الحج : ٣ — (٤٦) الحج : ٨ ، ٩ .

(٤٧) غافر : ٣٥ — (٤٨) غافر : ٥٦

يقول الدكتور محمد البهي - في وصف القرآن للماديين بالجدل بالباطل - « يصفهم القرآن بأنهم إذا دخلوا الجدل ، أو الحوار مع أصحاب الحق ، فإنهم يجادلون بالباطل ، وهذا أمر طبيعي لأنهم يستندون إلى منافع خاصة بهم .

والحق في ذاته قد لا يساير المنفعة الخاصة ، وحرصهم على منافعهم يشدهم إلى تأييد الباطل . كلما ابتعدت منفعتهم عن الحق في ذاته : يقول الله تعالى :

﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾[49] .

ثامنا : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف .

الإنسان مدني بفطرته . ومن ثم طبع على الاجتماع والتآلف والتحاب والشوق إلى الآخرين ومن هذا المنطلق يتحمل مسئوليته إزاء المجتمع قدر جهده وطاقته :

إن تلك المسئولية تسمى بلسان الشرع « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وهي سمة بارزة من سمات المجتمع المؤمن .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[50] .

وفي سورة التوبة يقول الله تعالى :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[51] .

هذا هو المجتمع الإنساني في قمته الإنسانية الكريمة . ولكن على النقيض من ذلك ترى المجتمع المادي يموج بالمنكرات ، ويعج بالموبقات . وكل يغني على ليلاه ، وليس ذلك فحسب ، بل يأمر أفراده بعضهم بعضا بالمنكر ويزينونه إليهم .

---

(٤٩) القرآن في مواجهة المادية ص ٢٢ والآية من « الكهف » : ٥٦

(٥٠) آل عمران : ١١٠

(٥١) التوبة : ٧١

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم . نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[٥٢] .

ولما كان الماديون بهذه الصفة فقد استحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله .

﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .
كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[٥٣] .

تاسعا : التكبر والطغيان :

من السمات البارزة في الإنسان المادي التكبر على الآخرين ، والبطش بهم . والتعالي عليهم .

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾
إنه يظن نفسه غني عن الناس ، وفي غني عن الله . فينكر وجود الله ، ويتمرد على الناس .

ولقد كان إبليس ـ عليه اللعنة ـ مشعل تلك الشرارة . شرارة التكبر والتمرد والطغيان في الوجود .

ومن ثم خرج على أمر الله . واستكبر وكان من العالين . اعتزازا بعنصره الناري . وظنه أفضليته على الإنسان . ذلك المخلوق من العنصر الطيني .

لقد تحدث القرآن عن ذلك كثيرا . وحسبنا هذه الآيات من سورة (ص) المكية تصور لنا تلك الواقعة التي تفصح عن تلك الحقيقة المرة ، يقول الله تعالى :
﴿ إذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر

(٥٢) التوبة : ٦٧
(٥٣) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

وكان من الكافرين .

قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي : أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾

ولقد ورث الإنسان تلك الصفات المرذولة التي تجسدت في الماديين فأصبحت من سماتهم البارزة .

وتلك من فتنه الإبليسية التي منيت بها البشرية إلا من عصم الله . وفي ذلك يقول الله تعالى إثر هذه الآيات مباشرة .

﴿ قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين .
قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون .
قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم .
قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين .
قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[٥٤] .

لقد تحقق ذلك الوعد الإبليسي ـ بأمر الله ـ في كثير من بني الإنسان وكان هناك على مدى التاريخ ـ أمثلة صارخة تجمدت فيها الصورة الإبليسية بأبشع ما تصور الإنسان .

ولقد سجل القرآن الكريم بعضا من تلك الصور[٥٥] . ليتذكر المتذكرون وليتعبر أولو الألباب .

من تلك النماذج « فرعون »

وكلمة « فرعون » في الأصل لقب للحكام في مصر القديمة . ولكن واحدا من هؤلاء الفراعنة . كان أبشع مثل للمادية في صورتها السافرة المنفرة ـ مع الله ،

---

(٥٤) ص ٧١ ـ ٧٦ (٥٥) ص ٧٧ ـ ٨٥

ومع أنبيائه ، ومع الناس مما جعله صورة مسجلة بالوحي الإلهي في القرآن الكريم . وفي أكثر من موضع فيه .

وفي هذا المكان لا نحكي قصة هذا الفرعون ، ولكن حسبنا أن نشير إلى بضع آيات بينات لتدرك مدى ما يتمتع به هذا الفرعون من تكبر وتجبر ، وبطش وطغيان .

لقد تمادى فرعون في طغيانه إلى حد ظنه منازعة الله في قدرته ﴿**وقال فرعون ذروني أقتل وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾ [٥٦] وفي نفس سورة غافر .

﴿ **وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله وإني لأظنه كاذبا .**

وكذلك زين لفرعون سورة عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب﴾[٥٧] .

ولقد بلغ التمرد بفرعون مداه إلى حد ادعاء الربوبية .

وقد سجلت ذلك سورة النازعات وهي مكية .

إنها تحدثنا عن موقف فرعون من نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ ثم تحكي قولته المزعومة ، وعصيانه وتمرده ، في آيات تتلى ، وتلاوتها عبادة .

﴿ **هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى .**

فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ .

(٥٦) غافر : ٢٦ (٥٧) غافر : ٣٧

هذا هو المادي العتيد في تكبره وتمرده على الله وعلى أنبيائه ، أما في تسلطه على الناس ، وبطشه بهم ، فلنقرأ هذه الآية من سورة القصص ، وهي مكية أيضا .

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضيف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾[٥٨] .

تلك هي إشارات إلى المادية في تكبرها وتمردها وطغيانها ، في « فرعون » مما كان سببا في أن تصبح تلك كلمة « فرعون » كلمة جامعة لكل خصال الشر والظلم والطغيان .

عاشرا : الكفر بالنعمة :

الكفر بالنعمة وجحودها من سمات الماديين الملحدين ، لأنهم كفروا بالله ابتداء ، فلا يعترفون له بالفضل والنعمة ، بل يجحدون تلك النعمة ويستغلونها أشنع استغلال ، ويصرفونها في البغي والطغيان .

هذا هو « قارون » مثال صارخ للطغيان المالي ، وتصريفه في أوجه الشر والفساد ، وعدم الاعتراف بالنعم ، فكان جزاؤه أن خسف الله به وبداره الأرض ، وأصبح عبرة لأولي الابصار .

تسجل هذا سورة القصص وهي مكية فتقول

﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغي عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين .

وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين .

قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون .

---

(٥٨) سورة القصص : ٤

فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم .

وقال الذين أوتو العلم ويلكم ثواب خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون .

فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ، ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾[٥٩] .

إذا كان « فرعون » صورة للمادية الصارخة بالجاه والسلطان ، فإن « قارون » شر مثال لها بالعلم والمال .

وفي هذه الآيات يتضح لنا قارون ، في طغيانه بعلمه وماله ، حتى فتن الناس به وقالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم .

ولكن الله الخالق الرازق ـ رحمة بنا ـ يضع لنا القواعد الأصلية التي بها يواجه الانسان نعمة فيبارك له فيها .

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾[٦٠] .

الحادي عشر : الغاية تبرر الوسيلة :

هذه من أخص الصفات التي يتصف بها الماديون في سلوكهم ، وأسلوب حياتهم وتلك نتيجة حتمية لمن يستبيح لنفسه الكفر بالله ، والاستهزاء بالأنبياء ، والسخرية من المؤمنين ، والخداع مع الناس ، وغيرذلك من الصفات المرذولة ، إن المنافقين مثال صارخ لذلك كله ، لأنهم في عقيدتهم ، يبطنون الكفر ، وفي أقوالهم يراءون بالإسلام . وفي أفعالهم مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

(٥٩) القصص : ٧ ـ ٨١

(٦٠) ابراهيم · ٧

ـ تلك حالة شاذة في مسيرة البشرية ، إنها حالـة مريضـة بأخبـث ما عرف التاريخ من أمراض الإنسان ، لأن جميع الأمراض تنتهي بنهاية الإنسان أما ذلك النوع الخبيث فيمتد أثره إلى ما بعد موت الإنسان .

ولما كان المنافقون بهذه المثابة فقد وقف القرآن الكريم معهـم وقفـات طوال يكشف أحوالهم وسلوكهم .

ومن خلال هذا السلوك يفضحهـم في عقيدتهم وأخلاقهم ، وحسب القرآن في ذلك أن وضع لهم سورتين باسمهم تسمى الأولى ! صراحة ـ « المنافقون » .

وتسمى الثانية « التوبة » كما تسمى « براءة » وتسمى « المنافقون الكبرى » وهي من السور المدنية الطوال .

ونحن لا نستطرد في سرد ما نزل في شأنهم في قرآن ولكن حسبنا أن نشير إلى تلك الآيات من سورة البقرة حيث يقول الله تعالى فيهـم :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين .

يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون .

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون .
ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون .

الله يستهزىء بهم ويمدهـم في طغيانهـم يعمهـون ﴾[٦١] واضـح من هذه

---

(٦١) البقرة : ٨ ـ ١٥ .

الآيات مدى ما يتمتع به المنافقون من صفات قبيحة ، وأعمال دنسة ، وسلوك خبيث ، يستهدف تقويض دعائم الإسلام من داخله ، بشتى السبل المتاحة .

تلك هي وقفتنا مع الماديين في خصائصهم النفسية ، وسماتهم الأخلاقية ، كما سجلها القرآن الكريم ، وهي سمات وخصائص الماديين في كل عصر وجيل على مر الزمن ، كما سيتضح لنا بعد ختام هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

معتقدات موروثة

المعرفة عند الماديين :

الماديون حسيون ، لا يؤمنون إلا بكل ما هو محسوس ، وما لا يمكن إدراكه بالحس المباشر . أو غير المباشر ، لا وجود له في نظرهم . ومن هذا المنطلق كانت « المعرفة » من وجهة النظر المادية ـ حسية بحتة ، وجزئية صرفة ، ومن ثم ينكر الماديون القواعد الكلية ، والحقائق الثابتة .

وما دامت المعرفة ـ عن الماديين ـ حسية فإن الطريق إليها ـ من وجهة نظرهم ـ حسي كذلك .

من هذا المنطلق ، يعتقد الماديون : أن الوسيلة الوحيدة الموصلة إلى المعرفة هي الحواس : سواء في تلك الحواس المباشرة ؛ أو الآلات العلمية المخترعة : والتي يتمكن بواسطتها الإنسان من إدراك الأشياء الدقيقة أو البعيدة ، مما تعجز الحواس المباشرة عن إدراكها ،

هذه ـ بإيجاز ـ رؤية الماديين في (المعرفة) وفي الوسيلة أو المنهج الذي يوصل إليها .

هذا هو معتقد الماديين ـ الأساسي ـ قديما وحديثا :

ومن منطلق منهجنا القرآني، نرى أن الماديين إزاء قضية وجود الله تعالى : على النحو الآتي :

الفريق الأول : ينكر وجود الله الواحد الأحد : الخالق الرازق ، والذي بيده الأمر والتدبير :

وفي ذلك يقول الله تعالى : في سورة الجاثية وهي مكية : ـ

﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا :
وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾[٦٢] .

وفي سورة الأنعام وهي مكية أيضا :
﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾[٦٣] .

وفي سورة (المؤمنون) وهي مكية كذلك :
﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾[٦٤]
وفي هؤلاء تقول سورة البقرة وهي مدنية .
﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم .
ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾[٦٥] .

الفريق الثاني : والفريق الثاني من الماديين يعترف بوجود إله ولكنه يؤمن به في صورة حسية ملموسة ، على شكل وثن أو صنم .

وفي المجتمع المادي الوثني تتعدد الآلهة . كما تتنوع في صورها وأشكالها .

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في سورة نوح : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم :
ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾[٦٦]

ولما كانت تلك الوثنية المتقدمة متمكنة من نفوس الجاهلين استولت عليهم الدهشة من دعوة النبي (ﷺ) : إلى إله واحد ، واتهموه في ذلك بالسحر والكذب والافتراء .

تصور ذلك سورة ص : وهي مكية حيث تقول عن المشركين :
﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم .

---

(٦٢) الجاثية ٢٤ (٦٣) الأنعام ١٩
(٦٤) المؤمنون ٣٨ (٦٥) سورة البقرة . ٢٨
(٦٦) نوح . ٢٣

وقال الكافرون هذا ساحرا كذاب
أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب :
وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد .
ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق ﴾[٦٧]

أما سورة (الزمر) فتذكر أنهم يعبدون هذه الأصنام تقربا إلى الله عز وجل :

﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٦٨]
وهؤلاء الماديون :
﴿ لئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾[٦٩]
﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾[٧٠]

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾[٧١] .
﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾[٧٢] .

الفريق الثالث : من الماديين يتمثل

الفريق الثالث : من الماديين يتمثل في ذلك الصنف من البشر الذي أكرمه الله تعالى : برسالات السماء ، ولكنه عبث بها ، وانحرف عن مسيرتها ، فنزع إلى التجسيد والتشبيه ، وهؤلاء هم اليهود الذين قالوا « عزير بن الله » ، والنصارى الذين قالوا « المسيح بن الله » .

---

(٦٧) (ص) ٤ - ٧
(٦٨) الزمر : ٣
(٦٩) الزخرف : ٨٧
(٧٠) العنكبوت : ٦١
(٧١) الزخرف : ٩
(٧٢) العنكبوت . ٦٣

ولقد سجل القرآن ذلك في شأنهم ، فقال عن اليهود . في سورة البقرة وهي مدنية .

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾[73] .

وفي سورة التوبة وهي مدنية أيضا :

﴿ وقالت اليهود عزير بن الله ﴾[74] .

ذلك أن وصف البنوة يستلزم « الأبوة » لأنها سبب مباشر فيها ، وكلاهما لا يكون إلا ماديا .

ولما نجي الله بني إسرائيل من فرعون وبطشه بتلك المعجزة الكبيرة . ولم تجاوز أقدامهم البحر حتى رأوا من يعبد الأصنام من دون الله فطلبوا من موسى عليه السلام ـ أن يجعل لهم إلها مثل هؤلاء وفي ذلك تقول سورة الأعراف .

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم .
قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .
قال إنكم قوم تجهلون ﴾[75] .

ولقد وقع لهم ذلك بالفعل حيث صنع لهم « السامري » عجلا له خوار ، وفي ذلك تقول سورة طه وهي مكية .

﴿ فكذلك ألقى السامري .
فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾[76]
وفي سورة الأعراف :

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[77]

---

(٧٣) البقرة : ٦٥ — (٧٤) التوبة : ٣
(٧٥) الأعراف : ١٣٨ . — (٧٦) طه ٨٧ ، ٨٨
(٧٧) الأعراف : ١٤٨

أما النصارى ، فقد سجل عليهم القرآن تجسيدهم لله تعالى .

﴿ وقالت النصارى المسيح بن الله

فقال:ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون :

اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾(٧٨)

لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴾(٧٩) .

منهج الماديين في المعرفة :

تلك هي المعرفة لدى الماديين ، وذلك تصورهم بل اعتقادهم في الله ، على ضوء تلك النماذج التي سقناها . ولنا ـ بعون الله ـ وقفة تفصيلية في مواجهة الماديين لقضية الألوهية إن شاء الله :

ولما كانت تلك المعرفة حسية بحتة فإن الطريق إليها حسي كذلك :

يتضح هذا فيما سجله القرآن عن اليهود في طلبهم من موسى عليه السلام رؤية الله تعالى حتى يؤمنوا به .

« لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

أما المشركون فقد نوعوا في طلب الدليل المادي ليؤمنوا بالله ورسوله . هذه سورة الاسراء تسجل عليهم تلك المزاعم المادية المسفة فتقول عنهم .

﴿ وقال لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا

---

(٧٨) التوبة : ٣٠ ، ٣١

(٧٩) المائدة : ١٧ ، ٧٢

بشرا رسولا ﴾[٨٠]

وكثيرا ما سجل القرآن على المشركين طلبهم الدليل الحسي على إثبات البعث . وذلك بطلبهم عودة آبائهم الذين ماتوا من قبل وفي ذلك تقول سورة الدخان وهي مكية .

﴿ إن هؤلاء ليقولون .
إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾[٨١]

هذا هو شأنهم دائما تسجل ذلك عليهم سورة الجاثية فتقول :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ما كان حجتهم إلا أن قالوا إئتو بآياتنا إن كنتم صادقين ﴾[٨٢]

وعلى هذا أيضا كان قوم عاد . تسجل عليهم ذلك سورة الاعراف فتقول :

﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[٨٣] .

وكذلك في سورة « الأحقاف »
﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن ألهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[٨٤] .

ولما كان الماديون لا يؤمنون إلا بالمعرفة الحسية ، ولا يعتمدون سوى المنهج الحسي كذلك . فإننا نجد أن جميع معجزات الأنبياء السابقين كانت أمورا حسية ، لأنها تتلاءم وطبائع هؤلاء الماديين . وعلى سبيل المثال : لقد كانت معجزة نوح عليه السلام السفينة :

---

(٨٠) الاسراء : ٩٠ - ٩٣
(٨١) الدخان : ٣٤ - ٣٦
(٨٢) الجاثية : ٢٥
(٨٣) الاعراف : ٧٠
(٨٤) الأحقاف .

لقد كانت معجزة إبراهيم عليه السلام النجاة من النار .
لقد كانت معجزة موسى عليه السلام العصا وغيرها كثير .
لقد كانت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى باذن الله .

ومن هذا المنطلق أيضا . ترى أن القرآن الكريم قدم الدليل الحسي على إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته . وذلك بالإضافة إلى ما قدم من أدلة عقلية ونفسية ولغوية ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة « عبس » .

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه
أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا وزيتونا . ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبًّا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[٨٥]

وفي سورة البقرة :
﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[٨٦] .

ومن هذا المنطلق أيضا هناك معجزات حسية كثيرة وقعت لرسول الله (ﷺ) بالإضافة إلى القرآن الكريم معجزة المعجزات . ومن تلك المعجزات الحسية .

نبع الماء من بين أصابعه الشريفة (ﷺ) ، وتسبيح الحصى في يده ، والإسراء به ـ عليه السلام ـ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في الشام ، وانشقاق القمر .

---

(٨٥) عبس : ٢٤ ـ ٣٢
(٨٦) البقرة : ١٦٤

ومع كل تلك الدلائل الحسية الباهرة التي تتفق ومنهجهم الحسي فإنهم قد جُبِلُوا على العناد والمكابرة .

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾[٨٧]

إن ما قدمناه عن الماديين من خلال الرؤية القرآنية يؤكد لدينا ـ بحق ـ الرؤية المادية في المعرفة والمنهج . وذلك يؤكد ـ بلا شك ـ معتقد الماديين في قضية الألوهية وما يلزمها من معتقدات .

إن هذه المعتقدات تضرب جذورها مع الإنسان في أعماق التاريخ .

وقد ورثها الماديون جيلا بعد جيل ، فأصبحت معتقدات موروثة بما فيها من عادات سيئة ، وتقاليد مستقبحة .

وقد سجل القرآن الكريم على الماديين ذلك في قولهم :

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[٨٨] وفي قولهم :

﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾[٨٩] .

وعلى فترات التاريخ المتعاقبة ، وفي مختلف الأمم والشعوب . وبين الحين والحين . تطفو تلك المعتقدات المادية . تحت شعارات وأسماء مختلفة . وفي مجالات متعددة ، وهي هي ـ في أصولها وموضوعها ومنهجها ـ لا تختلف في حاضرها المعاصر عن ماضيها السحيق .

ولنا وقفة في ذلك بعد حديثنا الآتي عن الصور المادية ، كما سجلها القرآن الكريم .

---

(٨٧) القمر : ٢

(٨٨) الزخرف : ٢٣

(٨٩) البقرة : ١٧٠

صور مادية

لقد حفل القرآن الكريم بكثير من عرض الصور المادية . كما كانت في واقعها التاريخي الصحيح ، وهذا من قبل المنهج العلمي التطبيقي . للمنهج النقدي في القرآن الكريم ، مدعما بالمنهج التاريخي السليم .

والصور المادية التي سجلها القرآن متنوعة :

منها صور لأفراد ماديين ، هم أعلام بارزة للمادية الطاغية .

ومنها صور لمجتمعات مادية انطبعت عليها في قيمها وعاداتها وتقاليدها .

والقرآن الكريم في عرضه لتلك الصور المادية . قد سلك منهجا فريدا إنه منهج إلهي محكم ، يعتمد على :

١ ـ القصة الواقعية : أي عرض الصورة في قالب قصصي . من واقع التاريخ الصحيح . بعيدا عن الخيال والتزييف .

٢ ـ تكرار القصة في بعض الأحيان : وذلك تبعا للمناسبة التي تقتضيها من جانب ، ولإبراز بعض الجوانب ذات الأهمية الخاصة من جانب آخر .

٣ ـ تكرار القصة القرآنية ليس لمجرد التكرار ، لأن في ذلك إخلالا وإسفافاً بالأسلوب البياني عامة فضلا عن الأسلوب القرآني المعجز ومن ثم يتنزه عنه القرآن الكريم .

٤ ـ وحدة الموضوع والهدف . رغم هذا التكرار البلاغي . فإن القصة القرآنية . تتسم بوحدة موضوعها ، ووحدة هدفها ، وتبدو ـ في النهاية ـ وكأنها ذات فصول متعددة ، تستهدف عرض موضوعها ، وتحقيق الغاية منها .

﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن

تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٩٠]

وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما تثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[٩١] .

طغيان الملك والسلطان :

وفي رصدنا للصور المادية التي سجلها القرآن الكريم نتخير منها صورتين بارزتين :

إحداهما . تمثل قمة الطغيان المادي بالملك والسلطان .

وثانيتهما : تمثل قمة الطغيان بالعلم والمال .

أما الصورة الأولى فبطلها « فرعون » وقد أشرنا إليها سلفا عند حديثنا عن الخصائص النفسية والسمات الأخلاقية التي يتميز بها الماديون .

وهنا نضيف إليها : أن « فرعون » نموذج صارخ للقوة المادية الطاغية ، وقد اجتمع له من الأسباب ما قد ساعده على أن يحتل تلك المكانة المادية المسفة ، إنه في ذاته متكبر متعال يَمْلِكُ من مركزه وقوة سلطانه ما يؤهله لذلك تسجل ذلك سورة القصص فتقول

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ﴾ فهو فاسد مفسد ، يسفك الدماء ويسعى في الأرض بالفساد ﴿ يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾[٩٢] .

أما قومه فقد ساعدوه على تجبره وتكبره ، ولم يستطع أحد منهم أن يرده إلى صوابه ، وأن يثيه إلى رشده . رغم علمهم التام بضلاله وافترائه ، فعلى سبيل المثال

---

(٩٠) يوسف : ١١١ (٩١) هود . ١٢٠

(٩٢) القصص : ٤

لذلك تقول سورة القصص :

﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى لأظنه من الكاذبين ﴾[٩٣] .

هنا يزعم فرعون إدعاءه الألوهية . وقد وجد من قومه من يصدقه في زعمه .

وهنا ـ أيضا ـ يطلب فرعون من هامان أن يقيم له صرحا يصعد في السماء ليصل به الى إله موسى ، وهذه دعوى فاسدة بل مجنونة ، ومع ذلك لم يكذبه أحد من قومه ، ولم يرده إلى صوابه .

إن سورة الزخرف تسجل تلك الظاهرة في وقفة دقيقة تكشف عن سببها العميق فتقول عن فرعون :

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا فاسقين ﴾[٩٤] .

لقد ترددت كلمة « فرعون » كثيرا في القرآن الكريم ـ كما احتلت قصته مع نبي الله موسى عليه السلام مكانا بارزا في السور المكية والمدنية على حد سواء . وذلك مؤشر خطير يؤكد أهمية النظر في شأن فرعون كممثل فريد في الانحراف والتمرد على الله وعلى الأنبياء وعلى الناس .

ونحن في رصدنا لقصة فرعون ، لا نسترسل في عرضها ومناقشتها ، ولكن حسبنا مؤشرات خطيرة منها نلفت النظر إليها ، لنرى ـ بصدق وحق ـ كيف يصل التمرد بالإنسان إلى هذا المدى . من هذه المؤشرات :
أن فرعون طغى بملكه وسلطانه وتمرد على الله . فادعى الألوهية حسبما أشارت آية : « القصص » السابقة إلى ذلك .

﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾

« وفي سورة « النازعات » رصد لذلك الإفتراء . والنفور من دعوة سيدنا

---

(٩٣) القصص : ٣٨ (٩٤) الزخرف : ٥٤

موسى عليه السلام . وفي ذلك تقول السورة :

﴿ هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى .

فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى .

فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى .
فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[٩٥]

إن فرعون . بهذا التمرد قد فقد كل شيء من قيمته الإنسانية .
فاستولى عليه الغرور والتكبر . والبطش والطغيان فكان مسلكه مع بني إسرائيل « يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم » .

ومن هذا المنطلق دعا فرعون قومه إلى البطش بموسى ومن معه .
ولكن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ومن هنا نجى الله موسى وأهلك فرعون وقومه ، وجعله عبرة لمن يخشى .

لقد سجل القرآن تلك الحادثة في أكثر من موضع . وحسب ما ورد بشأنها في سورة « يونس » عليه السلام حيث تقول :

﴿ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال :آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[٩٦] .
لقد آمن فرعون عندما أدركه الغرق .

---

(٩٥) النازعات : ١٥ ـ ٢٦
(٩٦) يونس : ٩٠ ـ ٩٢

ولكن أنى لهذا الإيمان أن يقبل ؟ !!

لقد ارتد عليه إيمانه ، وتلك سنة الله في خلقه حسبما تؤكد ذلك سورة غافر ، إذ تقول :

﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[٩٧] .

طغيان العلم والمال

تلك هي الصورة المادية الفردية الأخرى التي نعرض لها من خلال رصدنا لتلك الصور في القرآن الكريم .

إنها صورة « قارون » الذي أصبح مثالا صارخا للطغيان بالعلم والمال .

إننا نعلم أن العلم من الله العليم الحكيم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم أشد الناس خشية ومراقبة لله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[٩٨] .

أما أن ينحرف الإنسان بعلمه ، فذلك هو الشذوذ والانحراف وذلك هو « قارون » .

ونعلم كذلك أن المال من زينة الحياة الدنيا يتفضل به مالكه الحق - وهو الله - على عباده ليؤدوا حقه ، ويصرفوه فيما أراد الله عز وجل ، وذلك هو الشكر .

أما أن ينحرف المرء بماله ، ويصبح المال سلاح بغي وتمرد وطغيان ، فتلك فتنة ، وذلك شذوذ وانحراف ، وذلك هو قارون .

لقد وصف القرآن الكريم كل ما فعله « قارون » وسجله وحيا يتلى .

---

(٩٧) غافر : ٨٤ - ٨٥ (٩٨) فاطر : ٢٨

وتلاوته عبادة ، وفي نفس الوقت للعظة والعبرة .

إن قصة « قارون » سجلت في سورة « القصص » فقط ، بصورة بلاغية نادرة ، وفيها يقول الله تعالى : « ان قارون كان من قوم موسى فبغي عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين »

لقد كان « قارون » حريا به أن يؤمن بالله إيمانا صادقا ، ولكنه بغي وتمرد بتلك الكنوز التي تنوء بمعالجتها العصبة القوية من الرجال .

إنه فرح بماله وبطر بنعمة الله عليه ، ولم يدرك حق الله فيها ، وشكره عليها ، ولما ووجه من قومه بالنصيحة ، لم يعبأ بها وقال « إنما أوتيته على علم عندي » .

وقد استبد به الغرور فخرج على قومه في زينته وخيلائه ، حتى فتن الناس به « وقال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم » .

إن قارون بهذا المال قد أصبح فتنة للناس ، وهنا يصبح جديرا بأن يحل به عقاب الله الذي لا رآد لقضائه ليكون عبرة للأولين والآخرين .

إن هذا ما قد حدث بالفعل .

« فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين »

إن قارون كان يمكن أن يتجنب تلك النهاية فيما لو سمع النصح واستجاب له ، وأدى حق الله في ماله ، حسبما وضح له قومه في قولهم :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا .
وأحسن كما أحسن الله اليك .

ولا تبغ الفساد في الأرض .
إن الله لا يحب المفسدين ﴾

ولكن أنى لتك القلوب أن تصدع للحق ، ولتلك العقول أن تفيق ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، يقول الأستاذ سيد قطب في مقدمته لقصة قارون : « الآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر ، والاستكبار على الخلق ، وجحود نعمة الخالق ، وتقرر حقيقة النعم ، فترخص من قيمة المال والزينة ، إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ، مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد »[99] .

الآن قد فرغنا من عرض صورتين فريدتين للمادية الطاغية ، وهما صورتان فرديتان ، ومن ثم ننتقل إلى عرض صورة مادية أخرى ، ولكنها صورة للمجتمع حينما يسقط في تلك المادية . فتصبح المادية صيغته في كل شيء .

في عقيدته وخلقه وسلوكه . وفي حضارته وقيمته .

قوم هود مثل حي للمجتمع المادي :

لقد بلغ قوم هود شأوا بعيدا في الحضارة المادية القديمة ، ولكنها حضارة تصدر عن عقيدة وثنية مادية خالصة ، أوضح معالمها : ـ
إقامة المساكن الفخمة فوق المرتفعات العالية ، خيلاء وفخرا .
بناء المصانع القوية التي تساعد هم في بناء منجزاتهم الحضارية الضخمة .
إقامة المنشئات الزراعية الجميلة ، وغير ذلك مما يعجز عنه الوصف إلا وصف القرآن وحده .

ولكن تلك الحضارة تقوم على خلفية لا إنسانية : لأنها وثنية في العقيدة

(٩٩) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧١٠ .

والعبادة .

ففيه أنانية في الأخلاق .

متمردة طاغية في السلوك .

لقد تحدث القرآن عن ذلك النوع الخبيث من المجتمعات في أكثر من موضع ، وقد كشف عن مواصفاتها النفسية ؛ والأخلاقية ومعالمها الحضارية ، وعن موقفها المتمرد على الله وعلى نبيه هود عليه السلام .

إنها قبيلة عاد التي كانت تسكن قرب حضرموت باليمن ، وهذا هو القرآن في سورة الشعراء يقول عنها :

﴿ كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ؛ إني لكم رسول أمين .

فاتقوا الله وأطيعون .

وما أسألكم عنه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

أتبنون بكل ريع آية تعبثون .

وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون .

وإذا بطشتم بطشتم جبارين .

فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذين أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين .

وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين .

إن هذا إلا خلق الأولين .

وما نحن بمعذبين ، فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[100]

---

(١٠٠) الشعراء : ١٢٣ ـ ١٤٠

هذه هي المعالم البارزة لقبيلة عاد وموقفها من الدعوة إلى الله تعالى : لقد بلغت القمة في التمرد والقوة ، وسيطرت عليها الأنانية واستولى عليها الغرور .

فقالوا « من أشد منا قوة » حسبما سجلت ذلك سورة « فصلت » في قولها : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق .
وقالوا من أشد منا قوة . أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾

ولما كان الغرور قد استبد بعاد إلى هذا الحد . حينئذ يصبح العقاب الفوري نتيجة حتمية لهذا التمرد .

وهذا ما كان بالفعل تحدثنا بذلك نفس الآيات فتقول : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[(١٠١)]

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه « قصص الأنبياء » :
فلما عتا قوم هود على ربهم ، وعصوا رسوله ، وكذبوه وجحدوا بآيات الله التي أقامها هود على صدقه في أنه مرسلٌ من ربه . واتبعوا أمر كل جبار عنيد من ملأ قومه .

ولم تبق فائدة في أنذارهم : أحل الله بهم نقمته في الدنيا ، بأن أمسك الله عنهم المطر ، حتى جهدوا ، وكان كلما نزل بهم الجهد .

ذكرهم هود بدعوته ، وأنه لا ينجيهم من البلاء سوى الاستماع له ، والعمل بنصائحه ، فكان ذلك يزيدهم عتوا ، إلى أن أرسل الله عليهم الريح العقيم : سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فأهلكم الله ، وأبادهم ، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل منقعر . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم

---

(١٠١) فصلت : ١٥ ـ ١٦

القيامة ، ونجى الله تعالى هودا والذين آمنوا معه برحمته من ذلك العذاب الغليظ ﴾[102]

يشير الشيخ النجار بذلك إلى قوله تعالى في سورة الحاقة :

﴿ الحاقة ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة .
كذبت ثمود وعاد بالقارعة .
فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية .
وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية .
سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .
فهل ترى لهم من باقية ﴾[3]

وكذلك في سورة « القمر »

﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر .
إنَّا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر .
تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر .
فكيف كان عذابي ونذر ﴾

ليس هناك بعد من تعليق سوى قوله تعالى ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾

---

(١٠٢) قصص الانبياء : ص ٥٣

(٣) الحاقة : ١ ـ ٨

(٤) القمر . ١٨ ـ ٢١

بين الأمس واليوم

قد فرغنا الآن من عرض الصورة الواضحة للماديين من خلال الرؤية القرآنية فتعرفنا على :

خصائصهم النفسية وسماتهم الأخلاقية .

معتقداتهم البالية الموروثة :

ثم عرضنا نماذج من الصور المادية والاجتماعية :

من خلال ما سجله القرآن الكريم عنهم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

وأمامنا الآن سؤال يفرض نفسه ـ وهو :

هل يختلف وضع الماديين في القرآن الكريم عنه قديما وحديثا ؟

بمعنى : هل يختلف الماديون في العصور السحيقة عنهم في القرآن ؟

وهل يختلف الماديون في العصور الحديثة عما سجله القرآن عنهم منذ أربعة عشر قرنا ؟

الحق : أن الماديين هم قديما وحديثا ، وأن ما قرره القرآن بشأنهم ، إنما هو الحقيقة الناصعة التي لا يمارى فيها إلا مكابر .

ذلك لأن القرآن وحي الله الخالق الذي هو أعلم بخلقه علما تاما كاملا .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » هذه واحدة :

والأخرى : أن القرآن ليس كتابا مرحليا على سلم الرسالات السماوية مثل الكتب السابقة ، وإنما هو كتاب الله الخالد إلى أن تقوم الساعة .

ومن ثم يتمتع بالمرونة والحيوية والصلاحية لكل زمان ومكان .

من هنا يصبح كل ما سجله القرآن في شأن الماديين حجة عليهم ، ومعبرا عن حقيقتهم تعبيرا صادقا .

(ومن أصدق من الله حديثا) :

ونحن عندما نعود إلى الوراء في الماضي السحيق نسترجع فكرتنا عن الماديين ، وأحوالهم ، وخصائصهم النفسية ، والأخلاقية ، فماذا نجد ؟ :

إننا نرى في الصورة البارزة أقواما ، وقبائل برمتها تتمثل في عاد قوم هود . وفي ثمود قوم صالح .

وهما - على سبيل المثال - لا مرجع لهما ، ولا مصدر يذكرهما قبل القرآن ، فلم يعرفا إلا من خلاله ، ومما قصه عنهم من أخبار .

وهناك في الماضي من عرفوا في التاريخ الإنساني قبل القرآن ، ولهم أكبر الأثر في الاتجاهات المادية الحديثة والمعاصرة :

نذكر منهم : السوفسطائيين :

ونذكر منهم : الرواقيين .

ونذكر منهم : الأبيقوريين .

ثم انتقل التأثير بعد من الأمة اليونانية إلى الأمة الرومانية إلى العصور الوسطى ، ثم تفجرت المادية بعد في العصور الحديثة .

حدث هذا إبان النهضة الأوربية ، ثم زادها اشتعالا ما جاء به دارون بما زعمه من (التطور الطبيعي) :

ولقد ساعد على ذلك موقف الكنيسة الكاثوليكية من العلم والعلماء ومحاربتها لهم ، ومطاردتها إياهم في كل مكان :

انطلق الماديون في كل اتجاه بالدراسات والبحث والتحليل :

وكانت مدارس ومدارس في كثير من المجالات :

في علم النفس : مدرسة التحليل النفسي

والمدرسة التجريبية .
وفي علم الاجتماع : مدرسة دور كايم .
وفي الاقتصاد : الماركسية
وفي الفلسفة : الوضعية المنطقية .
والوجودية
والبراجمانية
وهكذا : مذاهب وتيارات مادية تعج بها حياتنا المعاصرة .
وهؤلاء وأولئك : قديما وحديثا
ماديون في عقيدتهم
ماديون في أخلاقهم
ماديون في سلوكهم .

ونحن لن نسترسل في سرد أفكارهم في مختلف مذاهبهم ومدارسهم ولكن حسبنا أن نضرب في ذلك مثالا موثقا لنموذج منهم :

إن هذا المثال الصارخ هو (الشيوعية):
والشيوعية ـ كما هو معروف ـ ثورة مادية عارمة على الدين . والأخلاق والقيم :

إنها (ديكتاتورية) الصعاليك ، المطلقة :

إننا نسوق بيانا رسميا لأحد مؤسسيها يؤكد ـ بلا أدنى تعقيب ـ ما تقوم عليه الشيوعية من تمرد على الله وعلى القيم الانسانية ـ لقد ألقى لينين هذا البيان في مؤتمر الشباب الشيوعيين سنة ١٩٢٠ ، ولا يزال حتى اليوم وثيقة حية للشيوعية :

يقول لينين « إنني سأعرض هنا قبل كل شيء لمسألة الأخلاق والشيوعية » فالواجب عليكم أن تدربوا أنفسكم على الشيوعية . ومهمة عصبة الشباب أن تنظم نشاطها بالعمل ، بحيث تصبح بالتنظيم والتعليم والتعاون والنضال ، هي

ومن ينظر إليها نظرة القدوة والمثال جماعة شيوعية ، وكل عمل من أعمال التدريب ، والإرشاد لتعليم شباب اليوم . فالغاية الوحيدة منه أن تصبحوا شيوعيين .

« ويسأل السائل . أهناك شيء يسمى آدابا شيوعية ؟
أهناك شيء يسمى دستورا أخلاقيا للشيوعية ؟
« والجواب : نعم : ولا ريب .

وربما حاول بعضهم أن يصورنا كأننا قوم لا نعرف لنا دستورا معلوما للأخلاق والآداب ، وكثيرا ، ما يقول البرجوازيون .

إننا معشر الشيوعيين أناس نخرج على جميع الأخلاق والآداب ، وهو أسلوب من أساليب الإدراك المتبلبل ، ووسيلة من وسائل إثارة الغبار على أعين العمال والفلاحين .

« فبأي معنى يقال : إننا نخرج على جميع الأخلاق والآداب ؟
بمعنى واحد ، هو المعنى الذي يدين به البرجوازيون إذ يستبعدون الأخلاق ، والآداب من أوامر الإله .

فنحن نخرج على جميع - الأخلاق والآداب التي تنفصل عن المجتمع البشري وطبقاته .

« ونحن نرى : أنها خداع وتزييف وتضليل لقوى العمال والفلاحين » من قبل الملاك وأصحاب الأموال .

ونحن نرى : أن دستورنا الأخلاقي تابع لمصالح الحزب الطبقية التي يخوضها الأُجَرَاء ، ومستمد من الصراع في سبيلها - ثم يقول لينين في ختام بيانه .

« لا أخلاق عندنا . إلا الأخلاق التي تستمد من صراع طبقة الصعاليك .
« وإذا تحدث الناس إلينا عن الأخلاق ، قلنا : إن الأخلاق عند الشيوعيين -

تجتمع كلها في هذه الوحدة الوثيقة المنظمة أمام المشتغلين »[١٠٣]

هذا هو البيان الشيوعي الذي يقرر : أن الأخلاق ـ غير الشيوعية ـ مستمدة من تعاليم الله ، وأنها تزييف وتضليل من وجهة نظره . عليـه اللعنة .

إن هذا ليس بمستغـرب من الشيوعية ما دامـت تعتقـد أن « الـدين أفيون الشعوب »

أو كما يقول انجلز في رسالته إلى زميلـه كارل ماركس « إن كل دين ليس سوى الانعكاس الواهم في دماغ البشر للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم اليومي »[١٠٤] .

الحق : أن الماديين الملحدين لا يختلف بعضهم عن بعض من حيث المباديء والمعتقدات ، والسلوك والأخلاق تلك هي الحقيقة والله أعلم .

---

(١٠٣) نقلا عن « الشيوعية والإنسانية » للعقاد ص ٢٣٢ ط ٣ بيروت

(١٠٤) حول الدين ص ١١٢ كارل ماركس وانجلز تعريب زهير حكيم ط ١ بيروت .

الفصل الثالث

الماديون في مواجهة القرآن

* من أين جاء القرآن ؟
* الإعجاز والتحدي
* الوحي بين الحقيقة والواقع

من أين جاء القرآن ؟

من المؤكد أن الماديين ينكرون وجود الله تعالى ، لأنهم لا يؤمنون بما وراء المادة من غيبيات وروحانيات : ومن ثم يصبح - من المؤكد كذلك أن ينكر الماديون القرآن ، كما ينكرون « الوحي » من الله الواحد القهار .

إن هذا ما فعله الماديون الملحدون في مواجهة الوحي والقرآن . منذ اللحظة الأولى التي انطلق فيها رسول الله ﷺ ، يبلغ رسالة الله الى الناس . لقد كانت تلك المواجهة قوية وعنيفة ، وسلك بها الماديون كل مسلك .

وكان من الطبيعي أن يبحث الماديون عن مصدر آخر للقرآن - غير الله تعالى - يرجعونه إليه ، ويزعمون أنه انطلق منه .

فمن أين كان القرآن ؟

إن الوحي الإلهي قد رصد تلك المواجهة رصدا كاملا ودقيقا ومن هنا سجل على المشركين كل ما قالوه من مزاعم وافتراءات وأباطيل في مواجهة القرآن ، ثم كشف النقاب عن زيفها وتهافتها - وأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى ما يتمتع به الماديون من حقد وكراهية ، ومكابرة وأنانية .

فماذا قالوا عن القرآن ؟

لقد قالوا : الكثير والكثير عن القرآن . وجملة أقوالهم تدور حول إنكار كونه من الله تعالى . ومن هنا حاولوا أن يرجعوه إلى مصدر آخر ، وهذا المصدر الآخر في زعمهم .

هل هو محمد ﷺ في حالة مرضية : مجنون أو مسحور ؟

أم هو محمد ﷺ قد تراءت له أضغاث الأحلام واختلطت عليه ؟

أم هو محمد ﷺ في حالة صحية يؤلف من عند نفسه ذلك الكلام ، ويزعمه وحيا أوحي إليه من الله ؟

أم هي أساطير الأولين ، وخرافاتهم يفتري بها محمد ﷺ على الله وعلى الناس ؟

أم أن هناك من البشر من يعلمه ذلك الكلام ، ويزعمه قرآنا أوحى به إليه ؟

هذه جملة افتراءات الماديين التي يحاولون بها إخراج القرآن عن منبعه ومصدره الإلهي الحكيم .

وفي معالجتنا لهذا الموضوع ـ بمقتضى منهجنا القرآني ـ نعرض لتلك المزاعم بشيء من التفصيل ، ثم نتفحصها من خلال الرؤية القرآنية الصحيحة ، لنكشف عن تفاهتها في ذاتها وأصحابها ، ثم نلقي الضوء على « الوحي الإلهي » وهو الطريق الذي وصل منه القرآن إلى رسول الله ﷺ .

وهل هو ممكن الوقوع أم لا ؟

لهذا نقول ، والله المستعان .

عندما نطالع كتاب الله تعالى نرصد تلك الآيات البينات التي سجلت مزاعم الماديين المشركين في هذا الموضوع .

ومن ثم نجد أنفسنا أمام تلك الافتراءات الآتية :

١ ـ الافتراء بأن أضغاث أحلام اختلطت على محمد ﷺ وأنه افتراء على الله ، وأنه شاعر يلعب به الخيال .

وقد سجلت سورة الأنبياء وهي مكية ذلك كله في آية واحدة .

فقالت : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام
بل افتراه بل هو شاعر

فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾[1] .

ثم تردف السورة بعد ذلك لفت نظر الماديين إلى سؤال أهل الذكر ممن يعلمون الكتب السماوية السابقة ليتأكد لديهم أنه الحق . لأنه وحي من الله تعالى . فيقول :

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[2] .

٢ ـ الاتهام بأن القرآن ما هو إلا كلام مكذوب على الله . وأن محمدا كاذب في دعواه :

﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾[3] ويوضح القرآن هذا هو موقف الماديين دائما من الأنبياء والمرسلين . فقد قالوا عن نوح عليه السلام .

﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾

وكذلك قالوا عن صالح عليه السلام .

أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾[5]

٣ ـ اتهامهم القرآن بأنه سحر مبين ، وفي ذلك تقول سورة « سبأ » :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم .

وقالوا ما هذا إلا إفك مفتري .

---

(١) الأنبياء : ٥
(٢) الأنبياء ٧
(٣) ص : ٣
(٤) المؤمنون ٣٨
(٥) انظر . ٢٥

﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ ثم توضح السورة بعد ذلك أن هذا هو موقف الماديين الملحدين دائما . فتقول :

﴿ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾[٦] .

٤ - اتهامهم إياه بأنه أساطير الأولين . في الأمم الغابرة . وأن محمداﷺ قد علم هذه الخرافات فزعمها قرآنا أوحى إليه . تسجل ذلك سورة الفرقان فتقول :

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا ﴾[٧] .

وفي سورة النحل يقول الله تعالى عنهم :

﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾[٨] .

٥ - ادعاؤهم أن محمدا يفتريه من عند نفسه ويكذب به على الله تعالى : ولذلك يأت به منجما ، ولو كان من عند الله لنزل عليه جملة واحدة مثل الكتب السابقة . الزبور ، والتوراة والإنجيل .

إن سورة الفرقان تسجل على الماديين الملحدين هذه الدعوى المفتراة فتقول : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .

كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾[٩] .

والشطر الأول من الآية يقرر دعوى الماديين .

أما الشطر الثاني ، فلا يلتفت إليهم ولكن يوضح الحكمة التي من أجلها يتنزل القرآن منجما وأن تلك الحكمة هي تثبيت قلب النبيﷺ .

---

(٦) سبأ : ٤٣ ، ٤٥ | (٧) الفرقان : ٥
(٨) النحل : ٢٤ | (٩) الفرقان : ٣٢

أما في سورة يونس وهي مكية أيضا ـ فإن الأمر مختلف . حيث نحكي عن الماديين طلبهم من الرسول ﷺ . أن يأتيهم بقرآن غير هذا . أو أن يبدله ـ فكأنه من عند نفسه يبدل فيه ، أو يغيره كما يشاء .

ثم تؤكد السورة الكريمة الحقيقة الناصعة . وهي أن القرآن من عند الله وأن الرسول عليه السلام مأمور بتبليغه إليهم . ولولا ذلك ما فعل ، وهم يعرفون صدقه وأمانته .

إن هذا ما تقوله الآيات الكريمة .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات : قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقران غير هذا أو بدله .

قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي .

إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف أن عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾[10] .

يؤكد هذه الدلائل ما جاء في سورة الحاقة من قوله تعالى :

﴿ إنه لقول رسول كريم ،. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[11] .

ـ يزعم الماديون الملحدون أن الرسول عليه السلام قد تعلم القرآن من أحد من البشر . وهو غلام أعجمي يعرفونه .

---

(١٠) يونس : ١٥ ، ١٦

(١١) الحاقة : ٤٠ ـ ٤٧

ولقد سجلت سورة النحل هذا الزعم . ثم كرت عليه بالنقض والتفنيد فقالت :

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾(١٢) .

وفي هذه الآية يقول الإمام ابن كثير :

يقول تعالى مخبرا عن المشركين ، ما كانوا يقولونه من الكذب ، والافتراء والبهت . أن محمدا إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون الى رجل أعجمي كان بين أظهرهم ، غلام لبعض بطون قريش . وكان بياعا يبيع عند الصفا .

وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء :

وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية . فلهذا قال الله تعالى رداً عليهم في افترائهم ذلك « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » أي القرآن ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ، ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني اسرائيل . كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل »(١٣) .

* * *

تلك هي مزاعم الماديين الملحدين في مواجهتهم للقرآن الكريم ؛ ومن خلال رصدنا للحركات المادية الحديثة تراها نفس الافتراءات التي لا يزال يرددها الماديون المحدثون ومن على شاكلتهم ممن أكل الحقد قلوبهم ، وهذه نماذج

---

(١٢) النحل : ١٠٣ .

(١٣) تفسير ابن كثير في سورة النحل .

لما نقول :

مع جولد زيهر :

لقد زعم الماديون ـ كما سجل القرآن عنهم ـ افتراءات كثيرة منها : « بشرية القرآن وقد انقضى على هذه الأكاذيب أربعة عشر قرنا من الزمان .

ومع ذلك ترى الكثير من أعداء الإسلام يردد نفس الأكذوبة كالببغاء . . ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[١٤] من هؤلاء : اليهودي المجري « جولد زيهر » : في كتابه « الإسلام عقيدة ، وشريعة » .

إنه يزعم كاذبا القول « ببشرية القرآن » ويدعي : أن القرآن » على حد قوله « ليس إلا مزيج منتخبا من معارف وآراء دينية ، عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية : والمسيحية ، وغيرها : التي تأثر بها تأثرا عميقا : والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه »[١٥] .

طه حسين

إن ذلك التهجم والافتراء من « جولدزيهر » اليهودي المجري ، ربما يكون له ما يبرره ، بحكم عقيدته وثقافته وبيئته .

ولكن الذي لا يمكن تبريره هو ذلك الموقف من طه حسين إزاء القرآن والإسلام.

وإذا كان ثمة تبرير لذلك الموقف ، فإنه يلتمس ـ من وجهة نظرنا ـ في الحال النفسية والعقلية للدكتور طه . فهو في حالته النفسية ، قد أصيب بخيبة

---

(١٤) الكهف : ٥

(١٥) العقيدة والشعر معه ص ١٢ جولد زيهر ترجمة محمد يوسف موسى

أمل في دراسته بالأزهر الشريف ، وانطلق بتلك الصدمة موليا وجهه نحو الغرب ليتعلم ويفكر كما يفكرون : ويلبس كما يلبسون .

وقد تم له ما أردا . فعاد الى مصر ليدعو إلى السير في تلك الحضارة الأوروبية الحديثة : بمنهجها في الدين والفكر والحياة : وهذا ما كرس له جهده طوال حياته . إن في صراحة سافرة : وإن في لمز والتواء .

إنه يقول : « إن الدين الاسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومي لا كدين إلهي منزل بين الشرائع للبشر : فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام . ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في صميم الحياة السياسية : أو أن يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين »(١٦) .

إن طه حسين يرفض الإسلام كدين ـ إلهي ، وهو ـ في نظره ـ لا يصلح لبناء الحضارة .

ومن ثم يدعو الدكتور طه حسين إلى عزل الإسلام عن الحياة وعن حركة التجديد في الأمة .

الحق أن طه حسين قد صهر آراء المستشرقين في بوتقة فكره . ثم أخذ يفرز سمومها . ويقذف بها في وجه الإسلام والقرآن ، وذلك بالطعن في القرآن ـ وتناقض نصوصه ، مع مقررات العلم ، بل تناقض الدين عامة مع العلم . وكل ذلك وغيره مثبت في كتبه ولكنه كان أشد ضراوة في « الشعر الجاهلي » و « الأدب الجاهلي » وهو نسخة من سابقه مما دعا الأزهر إلى تأليف لجنة علمية لفحص آرائه وإعلان حكم الله فيهما ، وقد تم ذلك ، وأدين طه حسين في عقيدته وفكره .

---

(١٦) الأستاذ أنور الجندي في « طه حسين » : حياته وفكره ص ١٤٤ نقلا عن مستقبل الثقافة في مصر :

هذه إشارة وفق منهجنا ، ولمزيد من تفاصيل مواقف طه حسين يرجع الى كتاب « تحت راية القرآن » للأديب الرافعي - وإلى كتاب « طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام . للأستاذ أنور الجندي .

خوري حداد :

مبشر لبناني مسيحي يتهجم على القرآن وعلى الإسلام ، وقد كرس لذلك كل جهده في كتاباته ، وتصدى له الأستاذ محمد عزه دروزه في كتابه « القرآن والمبشرون » .

وعلى سبيل المثال يورد الأستاذ محمد عزه ملخصا لكلام الخوري فيما يزعمه من « كتابه القرآن والدعوة الإسلامية في العهد المكي ، فيقول :

« ومحصل ما أراد (الخوري) قوله : إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابيةانجيلية توراتية مسيحية يهودية .

وأن القرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين . ومقتبس منها ، وأنه كتاب توراتي إنجيلي يهودي نصراني : في موضوعه ومصادره ، وقصصه وجدله .

وأن محمدا كان متأثرا إلى أبعد الحدود باليهود والنصارى ، واليهودية والنصرانية ، والتوراة والأنجيل والكتاب المقدس - منسجما مع كل ذلك أشد الانسجام ، حتى كأنه واحد منهم ، مع غلبة المسحة المسيحية »[١٧] .

ذلك لون آخر من ألوان الافتراءات الموجهة ضد القرآن ، ؛ ولكنه لون صليبي منحرف . ذلك لأن المسيحية في حقيقتها وجوهرها دين سماوي نظيف .

---

(١٧) القرآن والمبشرون . ص ٩٥

ومن ثم كان القرآن مصدقا لما فيها . مثلما هو مصدق بكل الكتب السماوية قبله .

أما وقد انحرف الأحبار والرهبان بالمسيحية السماوية عن مسارها الصحيح الى مسيحية التثليث والصلب والفداء منذ مجمع نيقية سنة ٣٢٥م .

أما والأمر كذلك : فإن القرآن يكذب تلك الأناجيل المفتراه على الله وعلى سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام .

وكذلك الحال بالنسبة لليهودية السماوية ، والتوراة الإلهية المنزلة على موسى عليه السلام .

أما تلك اليهودية التلمودية المزعومة . وتوراتها المشؤومة .

فإن كرامة الإنسان تأبى مجرد النظر فيها ، لما حفلت به من صفات الخسة والبذاءة التي وصفت بها « الله » - حاشا وكلا - وتلك الأخرى التي لصقتها بالأنبياء مما ترفضه الإنسانية فضلا عن الإسلام والقرآن ونحن لا نسترسل في ذلك حتى لا نخرج عن موضوعنا ، ومنهجنا ، الذي يقضي بتلك الوقفة مع الماديين الملحدين ومن على شاكلتهم في مواجهة القرآن . ثم بعد ذلك نكر - بعون الله - على تلك الافتراءات بالنقض والإجهاز بعد تلك الفقرة إن شاء الله :

تنمان وفيكتور كوزان :

هذا لون آخر من ألوان المواجهة البغيضة ضد القرآن . وهو ليس موجها ضد النص القرآني في مصدره الإلهي ، ولكنه يستهدف أثر القرآن في الحركة الفكرية ، والتقدم العلمي . .

يتزعم هذه النزعة ضد الإسلام الفيلسوفان الألمانيان ؛ (تنمان) المتوفي سنة ١٨٢٩ م وبروكر المتوفي سنة ١٧٧٠م : والفيلسوف الفرنسي فيكتور كوزان

المتوفي ١٩٤٧م

ويرى هؤلاء : أن أهم عوامل الركود في العقلية العربية ، وضآلة الفكر الإسلامي ترجع إلى القرآن أولا ،

فهو كتاب المسلمين المقدس الذي يعوق النظر العقلي الحر »[١٨] .

من المؤكد أن من يطالع كتاب الله تعالى : ينكشف له لأول وهله : أن هذه الفرية باطلة ومنقوضة : ولا تثبت أمام النقد العلمي الحر .

ذلك أن القرآن يدفع العقل دفعا إلى التفكر الهاديء المستقيم ، ويرفض رفضا باتا ذلك الصنف من البشر الذي يعيش هملا ، فيغلق عقله ، ويصير إمعة بين الناس تقذف به الأهواء كما تشاء .

ولقد أنذر القرآن الكريم هذا الصنف وتوعدهم بجهنم وبئس القرار : لأنهم ـ حيئذ ـ كالأنعام بل هم أضل ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأ لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[١٩] .

﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ :

إن طبيعة القرآن وجوهره ينفيان هذه التهمة بوضوح وحسبنا هذه اللمحة حتى لا نخرج عن منهجنا ولنا معه وقفة بعون الله في « الأعجاز والتحدي » والله المستعان .

---

(١٨) التمهيدي في تاريخ الفلسفة ص ٥ للشيخ مصطفى عبد الرازق . ط ٣

(١٩) الأعراف : ١٧٩ (٣) الزمر : ٩

الأعجاز والتحدي

لقد وضح لنا في الفقرة السابقة تلك المحاولات والادعاءات التي حاول بها الماديون المشركون أن يصرفوا القرآن عن مصدره الإلهي الحكيم . ولا شك أن تلك الافتراءات المتعددة إنما تفصح عن قلق مُتَلبِّد بنفوس المشركين ، وحقد دفين في قلوبهم ، فلم يثبتوا في مواجهتهم القرآن على حال ، وإنما أخذوا في تقلب دائم من حال الى حال .

يقول المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « النبأ العظيم » « ومن تتبع أنواع المجادلات الي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأي : أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دورانا على ألسنتهم ، وأن أكثرها ورودا في جدلهم هي نسبته الى نفس صاحبه . على اضطرابهم في تحديد تلك الحال النفسية التي صدر عنها القرآن :

أشعر هي ؟! أم جنون ؟ أم أضغاث أحلام ؟!ـ

فانظركم قلبوا وجوه الرأي في هذه المسألة ؟ حتى أنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن ، وفي عقل رصين كعقل صاحبه ، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين . إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك الى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو اعتقادهم ، وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقادير مغمضين على ما فيها من محال وناب ونافر . ليثيروا بها غبارا من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة ، وليلقوا بها أشواكا من الشك في طريق السائرين الى روض اليقين »[20] .

نعم : تلك هي حال المشركين حسبما تؤكد ـ بذلك ـ أقوالهم التي سلكوا

---

(٢٠) النبأ العظيم ص ٥٩ ط . ١٩٦

بها كل مسلك ، حتى بلغ بهم الأمر الى محاولات باطلة في معارضة القرآن بكلامهم ، ولكنها ـ بالتأكيد ـ باءت بالفشل الذريع ، كما سيتضح لنا بعد إن شاء الله .

الحق أنه كلام الله :

الحق الذي لا مرية فيه : أن القرآن كتاب الله ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[٢١] .

وقد تأكد ذلك المعنى كثيراً في مواجهة الماديين المشركين سواء في رد افتراءاتهم ، أو في تحديه لهم ، وإعجازه إياهم .

أما رد افراءاتهم . فمنها في سورة الطور المكية قوله تعالى :

﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون .

أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون .

قل تربصوا فإني معكم من المتربصين .

أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون .

أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون .

فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[٢٢] .

وفي سورة الحاقة وهي مكية أيضاً ، قوله تعالى :

﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون .

إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون .

---

(٢١) هود : ١ (٢٢) الطور ٢٩ ـ ٣٤

ولا يقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين .

ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين . وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين : وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴾[٢٣] .

وهكذا يمضي القرآن في كثير من سوره ليؤكد تلك الحقيقة وعلى الأخص في سوره المكية .

ومما يلفت النظر افتتاح الكثير من السور المكية والمدنية بإقرار تلك الحقيقة إبتداء : لأنها الحق والحق ثابت لا شك فيه مهما عارض المعارضون ، وأنكر الملحدون ، وليراجع في ذلك من يشاء أوائل سورة البقرة ، آل عمران ، الأعراف ، يونس . هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم . الحجر ، الكهف ، طه ، الأنبياء ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، لقمان ، ، السجدة ، الأحزاب ، يس ، ص ، الزمر ، غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف - محمد ، ق ، الطور ، النجم ، الرحمن ، الجن ، المزمل ، العلق ، القدر ، البينة

الإعجاز القرآني :

نعم : إنه لحق اليقين : في كل ما جاء به من الله تعالى - سواء في ألفاظه ، ومعانيه ، أو فيما اشتمل عليه من حقائق وخصائص - ومن هنا كان القرآن معجزا ، وتلك خصيصة الخصائص التي يتميز بها كلام ا لله تعالى ، بمعنى ، أنه يعجز كل البشر عن الإتيان بمثله ، أو بأقل سورة ، منه وهذا الإعجاز ليس مقصودا لذاته ، وإنما القصد منه ، تأكيد تلك الحقيقة الخالدة ، أنه كلام الله تعالى .

---

(٢٣) الحاقة : ٣٨ - ٥٢

ولا يكون الإعجاز إعجازا صحيحا إلا إذا توافرت للمتحدّي أسباب القدرة التي تمكنه من محاولة التصدي والتحدي . والمعروف ، أن العرب ـ وقت نزول القرآن ـ أهل فصاحة وبلاغة كانتا مضرب الأمثال ، ومع ذلك قد أفلسوا ، وفشلوا فشلا ذريعا ، وعجزوا عجزا تاما عن معارضة القرآن .

أما الزعم بأنالإعجـاز القرآني تم بالصرفة فهو زعم خاطيء

وقد قال بهذا الرأي المعتزلة وخاصة : النظام وهو يعني :

أن العرب لديهـم القدرة الكاملة على التحدي ومعارضة القرآن

ولكن الله صرفهم عن تلك المعارضة ، وسلبهم القدرة عليها ومن هنا كان الإعجــاز .

إن مثل هذا الزعم كمثل من أوثق غريمه المريض ثم انهال عليه ضربا ثم قال : إنه أعجزه وانتصر عليه ، أليس ذلك بسفيه ؟!

وإذا كان القرآن معجزا ، فبأي وجه كانإعجــازه؟

أما إذا ما رغبنا في الكشف عن وجوه إعجاز القرآن فقد اختلفت في ذلك آراء العلماء : علماء العقيدة ، وعلماء علوم القرآن ، وعلماء البلاغـة وعلمـاء العلم التجريبي ، ولكل وجهة هو موليها ، وفق رغبته ، وحسب تخصصه ، ومن ثم :

قالوا : بالإعجاز اللغوي والبياني

كما قالوا : بالإعجاز العلمي

وقالوا : بالإعجاز التشريعي

وهكذا . تعددت وجهات النظر [٢٤] .

والرأي عندنا ، أن تلك الآراء يعضد بعضها بعضاً ، وليس ثمة تعارض بين بعضها البعض ، ولهذا يصح لنا القول : بأن الإعجاز القرآني إعجاز مطلق ، وبكل ما تحتمل كلمة الإعجاز من معنى دقيق وعميق .

يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتابه « اعجاز القرآن » « إن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ، حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا ، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة ،

وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية ، يشاركها في إعجاز الصنعة ، وهيئة الوضع .

وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها ، وما تظنه إلا الصورة الروحية للإنسان إذا كان الانسان في تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله .

« فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامه لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء »[٢٥]

وإذا كان الإعجاز القرآني مطلقا فإن جهود العلماء قد توافرت في الكشف عن وجوه ذلك الإعجاز في مختلف الأنحاء . وقد كتب في ذلك الشيخ الزرقاني

(٢٤) يراجع في ذلك إعجاز القران لابي يزيد الواسطي ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، ودلائل الاعجاز للجرجاني ، إعجاز القرآن للرافعي ، ومناهل العرفان للزرقاني ، وغير ذلك كثير في المكتبة الاسلامية

(٢٥) إعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٧

بحثا خاصا [٢٦] ممتعاً في كتابه « مناهل العرفان » ضمنه أربعة عشر وجها من وجوه الإعجاز في القرآن .

وتلك الوجوه تدور حول : لغة القرآن وأسلوبه . طريقة تأليفه . علومه ومعارفه ، وفاؤه بحاجات البشر . موقف القرآن من العلوم الكونية سياسته في الإصلاح . أنباء الغيب فيه . آيات العتاب فيه . ما نزل بعد طول انتظاره . مظهر النبي عند نزول الوحي عليه . آية المباهلة . عجز الرسول عن الإتيان بمثله .

الآيات التي تجرد الرسول من نسبة القرآن إليه . تأثير القرآن ونجاحه .

هذا ما يراه الشيخ الزرقاني رحمه الله . وهو حق كله . ذلك لأن القرآن معجز من أي وجه نظرت إليه فيه : إنه معجز في أسلوبه وما يتمتع به من خصائص لا يمكن توافرها لغيره من الأساليب .

تلك الخصائص التي جعلته يتوجه إلى كل أنسان على وجه الأرض منذ اللحظة الأولى لنزوله الى أن تقوم الساعة . رغم اختلاف العقول ، وتباين المدارك ، وتضارب الثقافات . واختلاف الزمان والمكان :

إنه لم يتوجه إلى الناس في عقولهم فحسب ولا إلى عواطفهم فقط ، وإنما هو يخاطب فيهم العقل والقلب كما يثير الوجدان ، من هنا أصبح ميسورا على كل إنسان أن يجد فيه حظه ، ويأخذ منه طلبته طالما هو ينشد الحق ، ويستهدف الخير .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

إن القرآن ليس معجزة فحسب بل هو معجزة المعجزات . ذلك أنه الوعاء الكامل للرسالات الإلهية في تمامها وكمالها . في الإسلام . ومن هذه الناحية ، تراه سجلا حافلا لمعجزات ومعجزات .

---

(٢٦) يراجع المبحث السابع عشر من ٣٣١ ـ ٤٣٥ من الجزء الثاني مناهل العرفان .

معجزات الأنبياء السابقين عليهم السلام

: والتي لا مصدر لها سواه .

معجزات الإنباء بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

معجزات آياته البينات آية آية .

يقول الشيخ الزرقاني رحمه الله « إن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات لا معجزة واحدة كما يبدو لبعض السذج والسطحيين : وإذا أضفنا إلى هذا ما يحمل القرآن من وجوه الإعجاز « تراءت لنا معجزات متنوعات تجل عن الإحصاء والتعداد وسبحان من يجعل من الواحد كثرة ؛ ومن الفرد أمة »[٢٧] .

على ضوء هذا ينكشف لنا بكل التأكيد أن القرآن معجزة كله في جميع سوره وآياته : وإذا كان الأمر كذلك فما هو أقل قدر معجز منه ؟

أننا حينما نرصد الآيات القرآنية الكريمة في هذه القضية ، يتضح لنا أن القرآن قد تحدى به الله المشركين ومن على شاكلتهم أن يأتوا بمثله . أو بعشر سور مثله : أو بسورة من مثله : وهذا التنزل في التحدي يدل على أمرين :

الأمر الأول : منتهى التحدي والإعجاز :

والأمر الثاني : أن أقل قدر ممكن في الإعجاز القرآني يصدق بسورة منه والسور القرآنية منها الطوال ومنها القصار : وبمقتضى منهج القرآن في التنزل بالتحدي يتضح أن أصغر سورة قرآنية ـ أو مثلها في عدد آياتها ـ هي أقل قدر معجز من القرآن .

ويصدق ذلك على سورة « الكوثر » ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر ﴾ وهذا كله مصداق قوله تعالى في سورة البقرة :

---

(٢٧) مناهل العرفان ص ٣٣٦ جـ ٢ .

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس . والحجارة أعدت للكافرين ﴾[٢٨] .

ويتضح من هذه الآية الكريمة ومن مثيلاتها في كتاب الله تعالى : أن القرآن : لا يتحدى فردا أو جماعة محددة من الناس : وإنما يتحدى أمة بل يتحدى العالم كله .

القرآن يتحدى :

يقف القرآن صامدا صلبا في مواجهة الافتراءات الباطلة التي يقذف بها الماديون من هنا وهناك على مر الزمن في محاولاتهم الجادة من أجل النيل منه ، والتشكيك فيه .

وخلاصة ما قدمناه من افتراءات الماديين وأشباههم تدور على أمرين :

الأمر الأول : الافتراء بتكذيب القرآن وأنه ليس من عند الله :

الأمر الثاني : الافتراء على القرآن بأنه يعوق النظر العقل الحر ، ويقعد بالمسلمين عن التقدم العلمي والحضاري .

والقرآن ـ بإعجازه المطلق ـ يتحدى ما يوجه إليه في كل جانب ومن كل اتجاه :

في الأمر الأول : الادعاء بأنه ليس من الله تعالى :

هنا يتحدث القرآن الكريم إلى المشركين من العرب ـ وهم أهل فصاحة وبلاغة مشهود بهما ـ ويتحداهم بل يتحدى جمع المقرضين والنثريين أن يأتوا بمثل ما أتى به من نص معجز معصوم من الخطأ .

---

(٢٨) البقرة : ٢٣ ـ ٢٤ .

وفي هذا التحدي ينهج القرآن نهجاً تنزليا مع الملحدين . حيث يتنزل معهم إلى أقل قدر ممكن من التحدي . حتى لا تكون لهم حجة . وتثبت عليهم الحجة .

ومن هذا المنطلق : يتحدى القرآن كل من تسول له نفسه بالتطاول عليه أن يأتي بمثله : وليستعن على ذلك بمن يستطيع معاونته من البشر .

إن سورة الطور « قد رصدت ادعاءات الماديين وافتراءاتهم :

على القرآن وعلى رسول الله ﷺ : على نحو ما بيناه سلفا :

ثم نتوجه في النهاية بهذا التحدي الصارخ .

﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[٢٩] .

أما سورة الإسراء فإنها تؤكد تلك الحقيقة الناصعة في الإعجاز القرآني وإن الإنس والجن معا لو اجتمعوا على قلب رجل واحد منهم على أن ياتوا بمثل هذا القرآن : فلن يأتوا بمثله وفي ذلك تقول السورة الكريمة :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٢]

ولما عجز المشركون عن الإتيان بمثل القرآن تراه يتنزل معهم إلى الأدنى من مثله ، فيتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله .

أن سورة « هود » تعرض لذلك التحدي : في سخرية ومشاكلة عجيبة تقول :

﴿ أم يقولون افتراه :

---

(٢٩) الطور ٣٤ (٢) الأسراء ٨٨ .

قل فأتوا بعشر سوره مثله مفتريات :

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين :

فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله . وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[٣٠] .

ومن البديهي أن يعجز الماديون المشركون عن مواجهة ذلك التحدي الأدنى ، ورغم ذلك يدفعهم العناد والإصرار على المكابرة إلى توالي افتراءاتهم وأكاذيبهم على الله : وهنا يتنزل القرآن معهم إلى أقل قدر ممكن يتحقق معه الإعجاز ، ومن ثم يطلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله أية سورة ولو كانت قصيرة .

وفي ذلك تقول سورة يونس .

﴿ أم يقولون افتراه

قل فأتوا بسورة مثله . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[٣١]

كما تؤكد سورة البقرة هذا التحدي فتقول :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين :

فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[٣٢] .

واضح من كل ما سبق أن القرآن يتحدى المشركين وأشباههم في :

---

(٣٠) هود ١٣ ، ١٤ (٣١) يونس ٣٨ .

(٣٢) البقرة : ٢٣ ـ ٢٤

أن يأتوا بمثله .

أو بعشر سور من مثله .

أو بسورة على الأقل من مثله .

ورغم كل هذا التنزل في التحدي لن يفلح المشركون في دعواهم وأباطيلهم أما الإعجاز القرآني .

معارضات شيطانية :

لقد حاول بعض المشركين معارضة القرآن بكلام مسجوع موزون ، وظنوا أنهم بذلك التطاول على القرآن ، ينالون منه ، ويصرفون الناس عنه ،

ومن هؤلاء من ادعى النبوة ، وزعم أن وحياً يأتيه من السماء ، وأن له قرآنا مثل قرآن محمد صلى الله عليه وسلم .

إن مسيلمة الكذاب واحد من هؤلاء الأدعياء . فقد ادعى النبوة باليمامة زمن رسول الله ﷺ ، ويقول عنه الرافعي :

« قد زعم مسيلمة أن له قرآنا نزل عليه من السماء ، ويأتيه به ملك يسمى « رحمن » بيد أن قرآنه كان فصولا وجملا ، بعضها مما يرسله ، وبعضها مما يترسل به في أمر إن عرض له ، وحادثة إن اتفقت ، ورأى إذا سئل فيه ، وكلها ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن في تراكيبه ، ويجنح في أكثرها إلى سجع الكهان ، لأنه كان يحسب النبوة ضرباً من الكهانة ، فيسجع كما يسجعون . وقد مضى العرب على أن يسمعوا الكهان ويطيعوا ،ووقر ذلك في أنفسهم واستناموا إليه ، ولم يجدوا كلام الكهان إلا سجعاً ، فكانت هذه بعض ما استدرجهم به مسيلمة وتأتى الى أنفسهم منها »[٣٣] .

(٣٣) إعجاز القرآن ص ١٧٩

ثم يذكر الرافعي بعضاً من ذلك القرآن المزعوم ، والذي افتراه مسيلمة على الله وعلى الناس . ومن ذلك قوله (أخزاه الله) : والمبذرات زرعا . والحاصدات حصدا . والذاريات قمحا . والطاحنات طحنا . والعاجنات عجنا . والخابزات خبزا . والثاردات ثردا . واللاقمات لقما إهالة وسمنا » إن هذا الإسفاف يزعمه مسيلمة قرآنا . لعنه الله وأخزاه

وقد اتهم ابن المقنع بمعارضة القرآن ، ولكن الرافعي يدفع تلك التهمة ويقول : « إن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة ، لا لشيء من الأشياء . إلا لأنه من أبلغ الناس . . وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره من بلغاء الناس ، لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت بعده ، وكان البلغاء كافة لا يمترون في إعجاز القرآن وإن اختلفوا في وجه إعجازه . ثم كان ابن المقفع متهماً عند الناس في دينه فدفع بعض ذلك الى بعض ، وتهيأت النسبة من الجملة »[٣٤] .

وقد نسب إلى الشاعر أبي الطيب المتنبي أنه عارض القرآن ، خاصة وأنه قد ادعى النبوة في حدثان أمره ، على حد عبارة الرافعي .

كما نسبت المعارضة أيضاً إلى أبي العلاء المعري ، وغيره ، والنتيجة الحتمية لكل ذلك من قبل ومن بعد :

أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

لماذا : العناد والمكابرة ؟

لقد عارض القرآن من المتنبئين والأدباء والشعراء كل من سولت له نفسه ، وزين له شيطانه تلك المحاولة ، في التطاول على القرآن . ليكن : ولكن ماذا

---

(٣٤) نفسه ص ١٥٨

كانت النتيجة ؟ . إنها الفشل الذريع ، وما كانت تلك المعارضات إلا إسفافا لا يمكن أن يرقى إلى موطيء قدم القرآن في شيء . تلك هي النتيجة الواضحة ، ومع كل ذلك ترى العناد والأصرار في مواجهة القرآن فلماذا ؟

إن هؤلاء يعرفون تلك الحقيقة ، ولكن يدفعهم إلى عنادهم وإصرارهم ذلك الحقد الدفين في قلوبهم .

تلك هي الحقيقة التي سجلها القرآن الكريم في واقعة الوليد بن المغيرة وموقفه من القرآن . حسبما تنطق بذلك سورة « المدثر » فتقول عنه :

﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا .

إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبروا واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر .

سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾[٣٥] .

وقد ذكر الأمام ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة ، جاء إلى النبي ﷺ ؛ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه « فقال : أي عم : إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونكه . فإنك أتيت محمدا تعرض لما قبله . قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا قال (أبو جهل) فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له . قال (الوليد) فماذا أقول فيه ؟

(٣٥) المدثر : ١١ ـ ٣٠

فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته . وإنه ليعلو وما يعلى .

قال (أبو جهل) والله لا يرضي قومك حتى تقول فيه . قال فدعني حتى أتفكر فيه . فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره ، فنزلت « ذرني ومن خلقت وحيدا » حتى بلغ « تسعة عشر » ا . هـ[٣٦] .

وقد حكى الرافعي شيئاً من هذا القبيل فقال : قد رووا أن طلحة النمري جاء اليمامة . فقال أين مسيلمة ؟ قالوا : مه ! رسول الله .

فقال ، لا . حتى أراه . فلما جاءه مسيلمة قال : أنت مسيلمة . قال : نعم قال : من يأتيك .؟ قال : رحمن . قال : أفي نور أو في ظلمة ؟. قال في ظلمة قال طلحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق .

ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ولما توفى رسول الله ﷺ . وكان طلحة قد تنبأ واستطار أمره في بعض قبائل من العرب . وكان بين غطفان وأسد حلف في الجاهلية . قام عيينة بن حصن في غطفان فقال : إني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ونتابع طليحة . والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش[٣٧] .

والآن بعد تلك الوقفة مع القرآن في التحدي الصارم للمواجهات المادية الجارفة التي تستهدف إنكار كونه من الله تعالى . وبعد أن عرضنا للمشركين : متنبئين وغيرهم في معارضاتهم الشيطانية للقرآن . ولقد وقفنا على السر الدفين الذي يشعل نار العناد والمكابرة في نفوسهم . بعد كل هذا يحق لنا الآن : أن ننتقل إلى الجانب الآخر في التحدي القرآني . وذلك ببيان أثره في العلوم والمعارف .

---

(٣٦) تفسير ابن كثير في سورة المدثر (٣٧) إعجاز القرآن للرافعي هامش ص ١٧٦

الأمر الثاني في التحدي : القرآن والتقدم العلمي :

لقد أشرنا إلى فرية اتهام القرآن بأنه يعوق النظر العقلي الحر . ويقعد بالمسلمين عن مسايرة التقدم العلمي ، ومتابعة النهضة العلمية ، العالمية .

ذلك الافتراء أشرنا إليه حين عرضنا لافتراءات الماديين ومن على شاكلتهم في مواجهة القرآن الكريم .

إن هذا الافتراء لم يظهر على مسرح الحياة إلا بعد أن قامت النهضة الأوروبية وشقت طريقها بنجاح في الحضارة المادية الحديثة .

إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن في مواجهة تلك المزاعم المفتراه . هو ، هل صحيح أن القرآن يعوق النظر العقلي الحر ؟

وهل صحيح أن القرآن يمنع من التقدم العلمي الحضاري ؟

إن الوفاء بكل متطلبات الموضوع يحتاج الى مجلدات عظام . وقد كتب فيه الكثير والكثير من المسلمين وغيرهم من المفكرين المنصفين ، والمكتبة الإسلامية والعربية غنية بهذا الموضوع ،

من هنا . فإن معالجتنا للموضوع ستكون إجمالية بما يتفق وطبيعة منهجنا وحتى لا نخرج عن موضوعنا ، وسيكون تركيزنا بصفة خاصة على أثر القرآن في التقدم العلمي الحضاري بما يخرص الألسنة المغرضة بإذن الله تعالى . ومن هنا نقول .

إن القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى لنزوله ، بل في أولى آياته البينات

قد وضع الإنسان على باب العلم والمعرفة : وأمسك بيديه المفتاح الصحيح ، الذي ، إن هو أحسن استعماله : يصل إلى المعرفة الصحيحة في أسمى درجاتها ، ويحقق لنفسه ولبني الإنسان أعظم رفاهية منشودة في التقدم

الحضاري السليم .

لقد ابتدأ القرآن الكريم نزوله بآيات كريمة هي ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق : اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾(٣٨) .

تفيد هذه الآيات فيما تدل عليه :

١ ـ أن القراء مفتاح العلم .

٢ ـ أن القلم أداة العلم والمعرفة .

٣ ـ أن هذا العلم ـ بمعناه الشامل ـ إنما هو من الله العليم الحكيم .

٤ ـ أن الإنسان بلا علم لا قيمة له .

وأي علم أسمى وأرفع من ذلك الذي يصل الإنسان بخالقه .

ويعرفه بذاته ، وخلقه وتكوينه .

ومن هذا المنطلق ينطلق القرآن الكريم في مسيرته مع الإنسان ليقعد له منهج حياته في العلم والمعرفة .

فيوجب عليه نوعا من العلم هو أسماه وأرقاه . هو العلم بالله وصفاته ، وأنبيائه وكتبه ـ ومنهج عبادته وتشريعه في معاملاته وأخلاقه .

ذلك فرض عيني مطالب به كل إنسان في ذاته . وهناك كثير من العلوم بعد ذلك يطالب بها المجتمع كله . على سبيل ما يسمى ـ لدى الفقهاء ـ بفرض الكفاية . ومن هذا القبيل تعلم الصناعات والحرف المختلفة التي تنفع الإنسان في حياته ، وتكفل له الأمن والطمانينة والاستقرار .

ومن هنا : نرى أن القرآن يفرض العلم على أتباعه فرضا ويوجب عليهم

---

(٣٨) العلق : ١ ـ ٥ .

التفكير السليم ، وكثيرا ما يقـول : « أفـلا يتدبـرون ، أفـلا يتـذكرون ، أفـلا يعقلون » .

وغير ذلك من لفت الأنظار إلى دلائل القدرة الإلهية ، وشواهـد العظمـة الربانية في الوجود .

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولـي الألباب ﴾(٣٩) .

هذا في القرآن : أما السنة النبوية الشريفة فحسبك أن تلقي نظرة على ما تشاء من كتبها المعتمدة لنرى بوضوح بابا أو كتابا باسم العلم :

ومن الدرر النبوية في هذا الباب ـ ما اتفق عليه البخاري ومسلم من رواية معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيرا يفقه في الدين » .

وقد روي أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يبتغي فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء .

فضل العالم على العابد . كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء . وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »(٤٠) .

ومن المؤكد في الإسـلام أن تبليغ العلم بما ينفع الناس واجب شرعـا ، وكتمانه مخالفة شرعية يعاقب عليها : يؤكد ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم

---

(٣٩) آل عمران : ١٩٠

(٤٠) رياض الصالحين كتاب العلم :

القيامة بلجام من نار »[40] .

كما أوضحت السنة النبوية فيما اتفق عليه البخاري ومسلم من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »[42] .

ومن يرد المزيد من هذه النصوص فعليه بكتب السنة المعتمدة ليتأكد من بيانها وتوكيدها لكتاب الله تعالى في هذا الموضوع .

ومن هنا يتأكد لدينا أن العلم في الأسلام ينطلق من عقيدة إيمانية سليمة ، خالصة لله وحده . وهذا ما تفتقده الحضارات الأخرى .

وأن هذا العلم إنما هو العلم بأوسع معانيه ، وفي كل ميادين الحياة ، وعلى أساس من تلك النظرة في العلم . انطلق المسلمون في كل جوانب الحياة . علما ومعرفة :

في العلوم الدينية ومناهجها .

في العلوم الإنسانية وطرائق بحثها .

في العلوم التجريبية بأجهزتها وآلاتها .

ومن ثم أرسوا دعائم حضارة إسلامية إنسانية لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل :

ثم دارت الدائرة . فخلفت من بعدهم خلوف ، أضاعوا كل هذا ، وركنوا إلى التقليد والجمود نظرا لعوامل خبيثة أثمرت فيهم هذا التقليد وذلك الجمود .

---

(41) رياض الصالحين في كتاب العلم :

(42) رياض الصالحين وكتاب العلم .

عوامل تكمن في البيئة الاجتماعية التي أفسدتها عوامل الترف المادي البغيض .

١ ـ نظم الحكم الديكتاتورية التي منيت بها بعض الدول الإسلامية .

٢ ـ الاحتلال العسكري .

٣ ـ الاحتلال الفكري والعلمي إن صح هذا التعبير .

٤ ـ ومن قبل ومن بعد ، ذلك الايمان الذي خف وزنه في قلوب أتباعه : فاستحال إلى مجرد طقوس تؤدي وشعائر تتردد ، خفت فعاليتها في النفوس أو خفيت تماما .

إن تلك مشكلة أو كارثة حلت بالعالم الإسلامي ، والإسلام منها براء لأنها في حقيقة أمرها غير إسلامية:

أما الاسلام ـ في حقيقته ـ فهو صانع الحضارة الإنسانية الكريمة .

وليس بخاف على أحد اليوم مدى أثر الحضارة الإسلامية الرفيعة في تدعيم وبناء الحضارات الأخرى : خاصة تلك الحضارة الأوروبية المزدهرة . رغم الفارق الحيوي الكبير بين الحضارتين :

بين حضارتين :

لقد أسس الإسلام حضارته على أسمى الدعائم الإيمانية والأخلاقية الرفيعة .

ولقد تتلمذ باعثو النهضة الأوروبية الحديثة على العلماء المسلمين فنهلوا من كتبهم ، وعاشوا ردحا طويلا من الزمن على تراثهم :

إن هذه الحقيقة يدركها الأوروبيون تماما خاصة المنصفون منهم أمثال :

بريفولت في كتابه « بنا الإنسانية » :

وجوستان لوبون في حضارة العرب .

وويغريد هونكه في شمس العرب تسطع على الغرب وغيرهم كثير :

أما في العالم الإسلامي فهناك فرسان نادرة في هذا الميدان :

أمثال المرحوم الأستاذ / عباس العقاد :

والمرحوم الأستاذ/ سيد قطب .

والشيخ/ أبو الحسن الندوي

والشيخ/ أبو الأعلى المودودي

والأستاذ/ وحيد الدين خان

الدكتور/ محمد البهي

والشيخ/ محمد الغزالي :

والدكتور/ يوسف القرضاوي :

والدكتور الأستاذ/ فريد وجدي :

وغيرهم كثير ولله الحمد والفضل والمنة :

والحقيقة التي ينبغي أن نؤكد عليها هي تلك الفروق الجوهرية بين الحضارتين : وتتمثل في :

١ ـ أن الحضارة الإسلامية حضارة إيمانية في مبعثها ودافعها ، كما هي إيمانية في غايتها . إنسانية في هدفها :

أما في الحضارة الأوربية فهي حضارة مادية صرفة تقوم على خدمة

الجانب المادي في الإنسان : وقد حققت بالفعل تقدما رائعا في هذا الميدان :

ولأنها حضارة مادية : فهي إذن تفتقد الإنسانية في مبعثها وفي غاياتها : ومن ثم كانت نتيجتها عكسية مطردة في القيم الإنسانية ، والأخلاق الفاضلة :

ومن هنا ـ أيضا ـ أنتجت المزيد من النفعية والأنانية : والقلق : والانحلال إلى آخر ما تعانيه الأمم التي تقوم على تلك الحضارة :
٢ ـ الحضارة الإسلامية حضارة شاملة ـ مادية وثقافية ونأخذ بشتى السبل والمناهج التي توصل الإنسان إلى المعرفة الصحيحة سواء في ذلك ،

المنهج الاستنباطي .

المنهج التجريبي .

والمنهج الاستردادي .

والمنهج الجدلي .

أما الحضارة الأوربية فأنها تقوم على « المنهج التجريبي » وحده ، لاعتقادها بأنه هو المنهج الوحيد الموصل إلى المعرفة ، وتلك نظرة سوفسطائية قديمة برزت في ثوب جديد وقالب براق باسم الحضارة ، والحضارة الإنسانية منها بريئة كل البراءة .

ولقد زعم بعض المفكرين المسلمين أن هذا النوع من المنهج بصفة خاصة ، بل المنهج العلمي بصفة عامة لم يعرف إلا ابتداء من عصر النهضة .

ذكر هذا الافتراء الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابة « مناهج البحث العلمي » ونص على أن المنهج بمعناه العلمي « لم يعرف إلا ابتداء من عصر

النهضة ، وأنه في القرن السابع عشر تمت الخطوة الحاسمة في سبيل تكوين المنهج ، فبيكون في كتابه « الأورغانون الجديد ١٦٣٠ م قد صاغ قواعد المنهج التجريبي بكل وضوح ، وديكارت ، حاول أن يكشف المنهج المؤدي إلى حسن السير بالعقل والبحث عن الحقيقة في العلوم . كما يدل على ذلك كتابه « مقال في المنهج ١٩٣٧م »[٤٣] .

والحق : أن تلك فرية منكرة ، وأن المناهج العلمية بجملتها قد عرفها المسلمون من قبل ، وقد دفع إليها القرآن المسلمين دفعا ، بل الحق أيضا ، أن هذا « البيكون » فرنسيس بيكون الانجليزي ١٥٦١ - ١٦٢٦) ومن قبله سميه روجر سيكون الفرنسي ١٢١٤ - ١٢٩٧م .

الحق أن هذين وغيرهما ليسوا إلا رسلا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، على حد تعبير بريفولت في كتابه « بناء الإنسانية - والذي يقرر بصدق قوله :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجود نفسه »[٤٤] .

ونحن لا نسترسل في بيان تلك الناحية فقد وفيناها حقها - بعون الله - في كتابنا مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي .

التجربة العلمية في القرآن :

باديء ذي بدء تقرر : أن القرآن الكريم ليس كتابا متخصصا في علم من العلوم ، وإنما هو كتاب الله الخالق لهداية الإنسان المخلوق .

---

(٣٢) مناهج البحث العلمي د/ عبد الرحمن بدوي ص ٣ ط ١ سنة ١٩٦٣

(٤٤) تجديد الفكر الديني ص ١٥٠ محمد إقبال ، لمزيد من التفصيل

ولكونه كتاب الهداية الربانية فإنه يرشد الإنسان إلى كل ما فيه نفعه في حياته : الدنيا والآخرة .

ومن هنا . قد أشار القرآن إلى تجارب عملية جديرة بالتقدير والاهتمام . وقد عرض في ذلك صورا عدة واضحة جلية : من تلك الصور ما تأتي .

١ ـ قصة أهل الكهف ولها سورة خاصة تحمل اسم « سورة الكهف » فليراجعها من يشاء .

٢ ـ صورتين أخريين عرضتهما ، سورة البقرة ، في صفحة واحدة من المصحف الشريف :

الصورة الأولى تقول :

﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها .

قال : أنى يحي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه .

قال : كم لبثت .

قال : لبثت يوما أو بعض يوم .

قال : بل لبثت مائة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس . وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾

والصورة الثانية بعد ذلك مباشرة وفيها يقول الله تعالى .

﴿ وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى .

قال : أو لم تؤمن .

قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي .

قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[٤٥] .

---

(٤٥) البقرة : ٢٥٩ ـ ٢٦٠

وقد ذكر المفسرون في كتبهم المعتمدة أن إبراهيم عليه السلام قد أجرى تلك التجربة بالفعل[٤٦] .

والملاحظ أن تلك النماذج الثلاثة للتجربة العملية تستهدف إقرار وتأكيد عقيدة البعث . وهي من المعتقدات الإيمانية التي كثر حولها جدل الماديين قديما وحديثا .

وحسبنا هذا القدر ففيه الكفاية - وهل يبقى بعد ذلك شك في عناية القرآن وأثره في التقدم العلمي الإنساني ؟

---

(٤٦) يراجع تفسير ابن كثير في سورة البقرة

الوحي بين الحقيقة والواقع

لقد حاول الماديون . وهذا شأنهم دائما - أن يبعدوا القرآن عن مصدره الإلهي ، ومن ثم كانت افتراءاتهم التي عرضناها ، ثم عقبنا عليها ، بما رأينا في القرآن من التحدي والإعجاز .

ولما كان القرآن وحيا من الله تعالى إلى رسوله (ﷺ) - فهل يعترف الماديون بالوحي ؟

بكل تأكيد لا ، لأنهم لو اعترفوا بالوحي وبالله تعالى : لما كانت هناك مشكلة وبالتالي لخرج الماديون عن ماديتهم التي تدفعهم إلى إنكار كل ما وراء المادة من غيبيات وروحانيات .

من هنا كان الاهتمام بهذا المبحث أمر جدير بأن يوضح في تقديرنا ، ونحن في مواجهة الماديين الملحدين للقرآن الكريم ، فما الوحي في حقيقته ؟

الوحي بمعناه اللغوي - يطلق على مطلق الإعلام في الخفاء ، سواء كان ذلك الإعلام ، إشارة أو كتابة أو كلاما .

أما الوحي في عرفنا - معشر المسلمين - فهو : إعلام الله تعالى أنبياءه بما يشاء .

ومن هنا يتبين أن طرفي الوحي هما :

الله تعالى الموحي .

والأنبياء - عليهم السلام - الموحي إليهم .

أما طرق الوحي فهي :

أولا : الرؤيا الصادقة ، يراها النبي في النوم ، ثم يجدها في اليقظة كفلق الصبح ، كما حدثت بذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، عن أول ما بديء به

الوحي لرسول الله (ﷺ) .

ثانيا الإلقاء في الروع . وبذلك بأن يلقي الله في قلب نبيه ما يشاء مع تأكد النبي بأن ذلك من الله تعالى ، ومن هذا القبيل . ما جاء في صحيح ابن حيان عن رسول الله (ﷺ) أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .

ثالثا : كلام الله تعالى لنبيه من وراء حجاب « وكلم الله موسى تكليما » .

رابعا : الوحي بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام .

وفي ذلك تقول سورة الشورى .

﴿ ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا .

أو من وراء حجاب .

أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء . إنه علي حكيم ﴾[٤٧] .

هذا الوحي في حقيقته عندنا معشر المسلمين فهل تلك الحقيقة ممكنة الوقوع ؟ أم لا ؟

الحق عندنا أن ذلك ممكن الوقوع ، وأنه قد وقع بالفعل ، وأثر ذلك بين أيدينا شاهد حق وصدق على ما نقول ، إنه القرآن الكريم .

وقد شهد بذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد رأوه (ﷺ) . كثيرا في حال تنزل الوحي عليه .

أما نحن فقد وصل إلينا ذلك بالتواتر الصحيح الذي قلما يتوافر مثله لغير كتاب الله تعالى .

ونحن في مواجهة للماديين نطرح القضية باسم العقل . فهل يحيل العقل وقوع الوحي ؟

---

(٤٧) الشورى : ٥١

يقول الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد :

« أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل . فلا أراه مما يصعب إدراكه على من لا يريد أن يدرك .

« نعم يوجد في كل أمة ، وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش ، والنقص في العلم إلى ما وراء سواحل اليقين . فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها .

ثم يقول الأستاذ الإمام « أي استحالة في الوحي ، وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره ، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل طالب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة ؟

« مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا : وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط . بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا دخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه .

وأن من أرباب الهمم من يرى البعيد ـ عن صغارها ـ قريبا . فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذي لا ينازع .

ثم ينتهي من ذلك بقوله

« فإذا سلم ولا محيص من التسليم بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدمتها . عند الوصول إليها . أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعديه ـ من محض الفيض الإلهي ـ لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة

العليا . وتشهد من أمر الله شهود العيان . ما لم يصل غيرها إلى تعقله ، أو تحسه بعصى الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم ، ثم تصدر عن ذلك التعليم ، الى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم . . »[٤٨] .

هذا النص من كلام الإمام محمد عبده في غاية من الدقة والوضوح .

ولو نظرنا إلى الأنبياء والمرسلين . لتبين لنا : أنهم المصطفون الأخيار فهم الصفوة من خلق الله . الذي اختارهم لرسالات السماء .

﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾[٤٩] .

وذلك الاصطفاء إنما هو اختيار إلهي حسب علم الله وحكمته .

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[٥٠]

فالأنبياء إذن : بشر من البشر . وتلك البشرية كانت مثار جدل وإنكار من المشركين .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى . إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا .

قال لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[٥١] .

والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم يقفوا عند حد تلك البشرية في تلقيهم من الله تعالى والأمر يتطلب ـ إذن ـ من النبي :

١ ـ أنه باعتبار بشريته ، يحيا كما يحيا البشر ، ويمارس حياته في جد ونشاط كأسمى ما يكون عليه البشر من السمو الأخلاقي الرفيع .

٢ ـ أنه في حال تلقيه الوحي من الله تعالى . يرقى بروحانيته ، ويجرد من بشريته

---

(٤٨) رسالة التوحيد ص ١٠٠ ـ ١٠٢ بتصرف

(٤٩) الحج ٧٥

(٥٠) الأنعام ١٢٤

(٥١) الاسراء ٩٤ ، ٩٥

ويصبح في حال لا يكدرها شيء من الأدران والشوائب والشواغل ، ويصفو بنفسه كلية لله فيلقى الله تعالى إليه ما يشاء .

وفي ذلك قوله تعالى في سورة الكهف :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحد ﴾[٥٢] ,

الوحي : دراسة نفسية وعقلية :

إن حال رسول الله (ﷺ) أثناء تلقيه الوحي ظاهرة تستحق التأمل والدراسة ، وهي جديرة بالبحث والاستقصاء .

فكيف كان رسول الله (ﷺ) يتلقى الوحي من الله تعالى ؟
وما حاله التي كان عليها ؟
وما كان حاله بعدها ؟

أما كيف كان (ﷺ) يتلقى الوحي ؟ فقد سئل عن ذلك عليه السلام وذلك ثابت في كتب السنة .

وقد روي البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : أن الحارث بن هشام . رضي الله تعالى عنه . سأل رسول الله (ﷺ) فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله (ﷺ) :

أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال .

وأحيانا يتمثل الملك رجلا ، فيكلمني فأعي ما يقول » .

قالت عائشة رضي الله عنها :

ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن

(٥٢) الكهف : ١١٠

جبينه ليتفصد عرقا »[٥٣] .

وقد روي البخاري بسنده أن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« أول ما بدىء به رسول الله (ﷺ) من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح »[٥٤] .

تلك هي الحالات التي بها تلقى رسول الله (ﷺ) الوحي من الله تعالى : وهي جديرة بالدراسة في مواجهة الماديين الملحدين . أما الرؤيا الصادقة أو الصالحة ، فإنها إنباء بالغيب من الله لرسوله عليه السلام ، وذلك النوع من الرؤى ينكره الماديون في دراساتهم النفسية . خاصة « سيجموند فرويد » صاحب « المدرسة التحليلية في علم النفس » .

وذلك لسببين :

الأول : أن الماديين في دراستهم النفسية يدرسون الغرائز الإنسانية على أنها امتداد للغرائز الحيوانية ، بل الإنسان نفسه ـ كما يزعم دارون وأنصاره في التطور الطبيعي ـ امتداد للحيوان في تطور أرقى وأعلى .

الثاني : أن أصحاب المدرسة التحليلية يدرسون الأحلام باعتبارها ظاهرة مرضية خطيرة ، تكشف عن مكبوتات النفس البشرية في اللاشعور ، وعندما يغيب الرقيب ـ تكشف عن مكبوتات النفس البشرية في اللاشعور ، وعندما يغيب الرقيب ـ وهو الضمير ـ في حال النوم ، تقفز تلك الأشياء المكبوتة ، وتظهر بوضوح في منطقة الشعور .

وتلك الأشياء المكبوتة ـ في العقل الباطن نتيجة عوامل مختلفة ـ هي التي تسيطر على الإنسان في كثير من سلوكه اليومي .

إن الماديين ينكرون الأحلام التنبؤية ، لأنها نوع من الانفتاح الروحي على الملأ الأعلى . وذلك مالا يعترف به الماديون .

(٥٣ ، ٥٤) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي جـ ١ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

وإذا كان ذلك موقفهم من « الأحلام التنبؤية » فإنه من باب أولى ـ يكون موقفهم من الرؤيا الصادقة » التي هي ـ للأنبياء ـ وحي من الله تعالى : ولـذلك يزعم « فرويد » أن الوحي من الهواجس النفسية والعصبية ، أما تلك الحال التي كان الرسول (ﷺ) عليها أثناء تلقيه الوحي :

من صلصلة الجرس .
وتفصد جبينه عرقا في اليوم الشديد البرد .
وغيابه ـ بشعوره وعقله وقلبه ـ عن كل ما حوله
أما تلك الحال فهي جديرة بالدراسة والاهتمام :
فهل هي ظاهرة مرضية ؟
وإذا كانت كذلك فهل هـي ظاهرة نفسية أو عقلية ؟
وإذا لم تكن ظاهرة مرضية ، فماذا تكون ؟
إن ظاهرة الحالة المرضية العقلية تفقد الإنسان وعيه وإدراكه . فلا يعـي ـ أثناءها ـ شيئا مما يقول .
ولا يدرك شيئا مما يفعل .

ذلك لأن خللا ، أو عطبا ما قد أصاب القوى العقلية في الإنسان . فاختلت تلك القوى ، وفقدت توازنها ، وعجزت عن أداء وظيفتها .
ولهذا ترى المصاب بذلك النوع من المرض ، لا يتذكر شيئا مما قاله أو فعله أثناء أزمته تلك .

فهل كان الرسول عليه السلام في حال تلقيه الوحي مع شدته ، مصابـا ـ والعياذ بالله ـ بمرض عقلي كالجنـون ـ مثلا ـ حسبما يفتري الماديون ؟

الحق : أن ذلك لم يكن ، فلم يعرف محمد بن عبد الله يوما ما ـ قبل البعثة أو بعدها ـ بأن اعتراه شيء من ذلك ، بل هو معروف بينهم بأن « الصادق الأمين » وقد كان هذا منطقه في مواجهة المشركين في أول لقاء يعلن عليهم دعوتهم إلى الله وإلى الإسـلام

وقد شهد له ألد أعدائه ـ برجاحة عقله ـ وصدقه وأمانته ، وليرجع من يشاء إلى تاريخه في كتب السيرة المعتمدة والسنة الصحيحة .

هذه ناحية : والأخرى : أن الرسول عليه السلام كان ، حيثما يفيق من حال تلقيه الوحي ، يفصح عما جاءه من الوحي ، وهو آيات بينات في القرآن الكريم ، فليرجع من يشاء إلى كتاب الله تعالى ليرى الإعجاز المطلق ، في كل سوره وآياته .

هذا ـ بإيجاز ـ عن الظاهرة المرضية العقلية ـ والرسول عليه السلام مبرأ منها كل البراءة .

أما الظاهرة النفسية المرضية ، فهي متعددة في أنواعها وألوانها ، وآثارها ، ولكن يجمعها في شدتها :

١ ـ أنها قد لا تفقد الإنسان وعيه وإدراكه ، ولكنه ـ في نفس الحال ـ يعجز عن السيطرة على نفسه .
٢ ـ أن المصاب بتلك الحال . يتذكر ـ غالبا ـ ما قاله أو فعله أثناء أزمته .
٣ ـ أن ذلك النوع من المرض ـ في غالب أحواله ـ لا يأتي فجأة ، وإنما تسبقه مقدمات ، وحالات يلحظها الناس من حول المريض ، وكثيرا ما يعرفون أسبابها ، وقد يكونون طرفا منها .

فهل كان الرسول ـ عليه السلام ـ مصابا ـ والعياذ بالله ـ بشيء من ذلك ؟ حاشا وكلا .

لقد كان (ﷺ) مثال السكينة والوقار ، والعفة والطهارة ، والشجاعة والتواضع . وحسبنا قول الحق سبحانه وتعالى في شأنه

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[٥٥]

وما دام الوحي ليس ظاهرة مرضية : نفسية أو عقلية . فإنه ـ بحق ظاهرة صحية . كشفت عن أصح الكتب : كتاب الله تعالى . كما كشفت عن أصح الرجال : عقلا ونفسا وقلبا ، محمد بن عبد الله . (ﷺ) ، إلا أن هذه الظاهرة الصحية لا تخضع لمقاييس البشر ، وإنما تخضع لقدرة الله تعالى . خالق القوى والقدر .

ومن هنا لم يكن لرسول الله(ﷺ) فيها اختيار . ولم يكن فيها مس من الشيطان ، لأنها كانت تسفر عن كل ما يهلك الشيطان .

يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله وراز .

« إن نظرة واحدة تلقيها على عناصر تلك الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة تكلفا ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلفه التي كانت تسمع عند الوجه النبوي الشريف ، وأيضا لو كانت صناعه وتكلفا لكانت طوع يمينه فكان لا يشاء يوما أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاده في تحضيره . . إنه كثيرا ما التمسه في أوقات الحاجة إليه ، وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله . فهي إذن حال غير اختيارية »[٥٦] .

ثم يقول في المفارقة بين تلك الظاهرة والحالات العصبية :

« ثم نرى المباينة التامة ، والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأمراض المرضية ، والنوبات العصبية التي تصتفر فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان ، وتنكشف العورات ، ويحجب نور العقل ، ويخيم ظلام الجهل ، لأنها كانت مبعث نمو في قوة البدن ، وإشراق في اللون ، وارتفاع في درجة الحرارة ، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة ، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجيء

(٥٥) آل عمران : ١٥٩ (٥٦) النبأ العظيم : ٦٣

معها من العلم والنور ما تخضع لحكمته وتتضاءل الأنوار عند طلعته »[٥٧] .

الوحي والعلم الحديث :

العالم قرية إليكترونية .

هذا هو أصدق وصف للعالم الآن في تقدمه العلمي ، والتكنولوجي من حيث سرعة وسائل الاتصال بين الإنسان وأخيه الإنسان من أقصى الأرض إلى أقصاها .

والمنجزات العلمية في هذا الميدان تلقي ضوءا يقرب بل يؤكد للأذهان ، أن الوحي حقيقة واقعة ، نعمت به الإنسانية كلها على يد أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم .

عندما اخترع « التلفزيون السلكي » انزعج الناس وعجبوا ، كيف تحمل الأسلاك أصواتهم رغم بعد المسافات .

ويمر الزمن ، ويصبح هذا الجهاز شيئا عاديا . فقد اخترع « اللاسلكي » وأصبحت الأصوات تنتقل من أقصى الأرض إلى أقصاها . بغير أسلاك . ولكن على موجات أثيرية خاصة ، وشفرات معينة .

وهكذا الحال عندما اخترع « المذياع » وأصبح المتحدث في أي مكان يصل صوته إلى أنحاء العالم . وبواسطة « جهاز صغير » تلتقط هذا الصوت أو ذاك . كما تحب ، وحسبما تشاء .

أعجب من ذلك ، ذلك الجهاز الخاص بالاذاعة المرئية « التليفزيون » إنه ينقل إليك الصور ملونة مع أصوات أصحابها ، وتختزن تلك الصور والأصوات على أشرطة خاصة تراها وتسمعها كما تشاء .

وعجيب أيضا في ميدان البرق والمراكز الصحفية ، تلك الآلات الكاتبة .

---

(٥٧) نفسه : ٦٤

التي تبرق بأصواتها عبر الأثير فتنقلها آلات أخرى مقابلة ، لتسجل ما يرسله الطرف الآخر من أي مكان .

أما المراكز الأرضية لسفن الفضاء فأمرها مدهش وعجيب ، بل أدعى للدهشة والعجب . حيث متابعة الرواد في رحلتهم حول الأرض ، أو في كوكب آخر ، ومتابعة حالتهم الصحية من قياس درجة الحرارة ، ونبض القلب ، وضغط الدم ، وغير ذلك .

هذا فيما نعلم وما خفي كان أعظم .
وهذ ما صنع الإنسان ، ويخلق ما لا تعلمون

ترى : أليس في ذلك وحي بين الإنسان وأخيه الإنسان . رغم تلك المسافات الشاسعة بين الطرفين .

ورغم كل هذا ينكر الماديون من بني الإنسان أن يكون هناك وحي من الله تعالى لأنبيائه عليهم السلام .

وما أعجب الإنسان .
إن الإنسان لظلوم كفار .

الفصل الرابع

الماديون في مواجهة الدين

* الدين في القرآن
* الدين والطبيعة
* الماديو ن في المواجهة
* الإلحاد العلمي

الدين في القرآن

إن منهجية البحث في هذا الموضوع « الماديون في مواجهة الدين » تفرض علينا أن نعرض أولا « للدين » من خلال ما جاء به القرآن الكريم . فنتعرف على حقيقته وأسسه . وأبعاده . ومدى تمكنه من أصل الطبيعة الإنسانية . وهل هو فطرة جبل عليها الإنسان . ؟ بحيث لا يمكن أن يتلخص منها ، ويحيا بدونها ، أم هو عادة اكتسبها الإنسان من حياة الجماعة التي يعايشها ويحيا معاً . ؟

ذلك لأن الدين بالمعنى الذي قرره القرآن الكريم هو الذي ثار عليه الماديون بالتمرد ، والجدل ، والعناد والمكابرة . وذلك حسبما سجله القرآن نفسه عنهم ، وسطره عليهم ، ولذلك كله نقول : والله المستعان .

لقد وردت كلمة « الدين » كثيرا في القرآن الكريم . بمعنى الطاعة والعبادة لله وحده لا شريك له . وأن هذا المعنى هو القدر المشترك بين سائر الأديان السماوية .

وفي هذا قوله تعالى من سورة الشورى :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا والذي أوحينا إليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾[1] .

١ ـ دين الحق :

والدين ـ بهذا المعنى ـ هو دين الحق الذي أرسل الله تعالى به رسله جميعا عليهم السلام : مصداقا لقوله تعالى في سورة الأنبياء :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا

---

(١) الشورى : ١٣

فاعبدون ﴾[٢] .

لذلك وصفه الله تعالى بأنه « الدين الحق » وفي ذلك قوله سبحانه : في سورة التوبة :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلهٰ ولو كره المشركون ﴾[٣] .

وفي سورة الفتح :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾[٤] .

وفي سورة الصف :

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[٥] .

٢ ـ الصراط المستقيم :

وفي هذا المعنى جاءت سورة الأنعام بقوله تعالى :

﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾

ثم يزيد ذلك بيانا في منهجية عملية سليمة بقوله تعالى :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين :

﴿ قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء . ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى. ثم إلى ربك مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .

---

(٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) التوبة : ٣٣
(٤) الفتح : ٢٨ (٥) الصف : ٨

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب . وإنه لغفور رحيم ﴾[٦] .

٣ ، ٤ دين الفطرة النقية الطاهرة . والدين القيم :

وفي ذلك تقول سورة الروم :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا . فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٧] .

هذا هو الأسلام :

لما كان الدين ـ عند الله ـ بهذه السمات القويمة . الدين الحق الصراط المستقيم . دين الفطرة النقية الطاهرة . الدين القيم . لما كان الأمر كذلك . كان هذا الدين ـ في صورته الصحيحة ـ هو الإسلام . خاتم الرسالات السماوية الكريمة .

هذا ما قرره القرآن الكريم في سورة آل عمران :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٨] .

وهذا هو ما جاء به جميع النبيين والمرسلين وإن اختلفوا في المناهج والتشريعات وفي ذلك تقول سورة البقرة :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[٩] .

وهو نفس المعنى الذي تردد في القرآن كثيرا على لسان الأنبياء عليهم السلام ، ومن هنا تقرر في القرآن رفض أي دين يخالف دين الأسلام :

---

(٦) الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٥ (٧) الروم : ٣٠

(٨) آل عمران : ١٩ (٩) البقرة : ١٣٦

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[١٠] .

ولذلك ينعى القرآن على الرافضين للإسلام رفضهم له وانصرافهم عنه

﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾[١١] .

هذا هو دين الله الذي ارتضاه لعباده :

﴿ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[١٢] .

وفي سورة المائدة :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[١٣] .

ومن عجيب أمر الله تعالى : أن يدع للإنسان ـ الذي خلقه سواه ـ الحرية والاختيار في أن يلتزم بهذا الدين أو يدعه :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾[١٤] .

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[١٥] .

وهذا الدين لن يقبل بحق إلا بالإخلاص له . وصدق النية فيه :

﴿ فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾

﴿ قل إن أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصا له ديني ﴾[١٧] .

في سورة الأعراف :

---

(١٠) آل عمران : ٨٥
(١١) ال عمران : ٨٣
(١٢) البقرة : ١٣٣
(١٣) المائدة : ٣
(١٤) البقرة : ٢٥٦
(١٥) الكهف : ٢٩
(١٦) الزمر : ٢
(١٧) الزمر : ١١ ـ ١٤

﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾[18] .

وفي سورة البينة :

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[19] .

وفي صحيح البخاري ما يؤكد ذلك كله : وذلك فيما رواه بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، وفي رواية أخرى للبخاري بزيادة « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله »[20] .

أما دعائم هذا الدين وأبعاده :

فإن الحديث عنها يستغرق القرآن كله ، وحسبنا تلك الآية الجامعة ، « آية البر » في سورة البقرة ، وفيها يقول الله تعالى :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة . والموفون بعهدهم إذا عاهدوا . والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا . وأولئك هم المتقون ﴾[21] .

ومن السنة النبوية المطهرة ، ذلك الحديث المشهور حديث جبريل عليه السلام مع النبي (ﷺ) ، وقد روي بروايات عدة تلتقي في جملتها على ذلك الحوار بين جبريل والنبي عليهما السلام :

---

(18) الأعراف : 29
(19) البينة : 5
(20) صحيح البخاري جـ 1 ص 3 ط 1 المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
(21) البقرة : 177

سأل جبريل النبي : ما الإسلام ؟

فقال النبي (ﷺ) الإسلام : أن تشهد ألا إلـه إلا الله وأن محمـدا رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتـؤدي الـزكاة ، وتصـوم رمضـان ، وتحـج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

وما الايمان ؟

الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبـاليوم الآخـر ومـا فيه ، وبالقضاء والقدر : خيره وشره حلوه مره .

وما الإحسان ؟

الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وما الساعة ؟

هنا قال النبي عليه السلام : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال جبريل : وما أشراطها ؟

قال النبي : أن تلد الأمـة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة ، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

في كل هذا الحوار ، كان جبريل يسأل ، والنبي يجيب ، فيقول له جبريل « صدقت » وقد عجب الصحابة من ذلك الذي يسأل ويصدق على الجواب ، وهم لا يعرفونه ، فلما إنصرف ، سألوا النبي (ﷺ) عنه ، فقال لهم : هذا جبـريل يعلمكم أمور دينكم .

تلك هي دعائم الإيمان بإيجاز . أما أبعـاده فإنهـا تشمـل الإنسـان في كل نشاطاته ، وأبعاد حياته في منهج إلهي محكم : سواء في ذاته وبين نفسه ، أو فيما بينه وبين الله خالقه أو فيما بينه وبين غيره من الناس ، أو فيما بينه وبين العوالم الأخرى التي يعايشها : جمادية كانت ، أو حيوانية ، أو نباتية .

وبالجملة إذا أردنا أن نتعـرف على الإسـلام في كلمات فعلينـا بكتـاب الله تعالى ، وسنة نبيه (ﷺ) ، وإذا أردنا ان نتعرف عليه في صورة عملية حية ، فعلينا بسيرة رسول الله (ﷺ) .

الدين والطبيعة الإنسانية

في سورة الروم نقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢٢] .

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية :

« يقول الله تعالى فسدد وجهك ، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية :

ملة إبراهيم الذي هداك الله إليها ، وكملها لك غاية الكمال : ولازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها : فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره :

« وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال بعضهم : معناه : لا تبدلوا خلق الله : فتغيروا الناس عن فطرتهم : التي فطرهم الله عليها فيكون خبرا بمعنى الطلب :

وقال آخرون : هو خبر على بابه : ومعناه :

لأنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك :

ولهذا قال ابن عباس : لا تبديل لخلق الله ، أي لدين الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مولود إلا يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء « هل تحسون فيها من جدعاء من ثم يقول :

« فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[٢٣] .

---

(٢٢) الروم : ٣٠

(٢٣) تفسير بن كثير من سور الروم ، والحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة

يتضح من هذا : أن الدين وهو الإسلام : فطرة أصلية جبل عليها الإنسان .

فقد فطر على معرفة الله تعالى وتوحيده ، حسبما تقرر في الآية السابقة وفي سورة الأعراف تأكيدلتلك الحقيقة ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم : قالوا : بلى : شهدنا : أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾[٢٤] .

ومن هنا كان الإسلام دين الفطرة لأن كل ما جاء به يتفق - تمام الاتفاق - مع الفطرة النقية الطاهرة ، كما أن كل ما نهي عنه : لا ينسجم مع الفطرة الإنسانية الكريمة في شيء .

تلك هي الحقيقة المؤكدة : والإنسان لا يخرج بفطرته عن تلك الحقيقة إلا بعوامل البيئة السيئة ، والتربية الفاسدة .

« فأبواه يهودانه : أو ينصرانه ، أو يمجسانه »

وكما ينحرف الإنسان عن فطرته إلى تلك الاتجاهات . فإنه قد ينحرف بها - أيضا - إلى أي من تلك المذاهب المادية المنحرفة كالشيوعية والوجودية ، أو البرجمانية ، وغيرها[٢٥] .

* * *

هذا هو الدين من خلال الرؤية القرآنية : وقد كشفنا - بإيجاز - عن حقيقته ، ودعائمه ، وأبعاده ، ومكانه من الطبيعة الإنسانية .

في عرض سهل ميسور ، فماذا كان موقف الماديين الملحدين منه ؟ وكيف كانت مواجهتهم له ؟

هذا : ما نعرض له في الفقرة التالية : والله المستعان .

---

(٢٤) الأعراف : ١٧٢

٢٥) لمزيد من التفاصيل يراجع الباب الأول من كتابنا « الاسلام والتيارات المعاصرة » والباب الرابع من كتابنا « الاسلام والفكر المادي »

الماديون في المواجهة

إن الماديين في مواجهة الدين ينطلقون من معتقدهم المادي في إنكار الغيبيات ، والروحانيات ، ومن ثم يصبح بديهيا أن يجابه هؤلاء الدين بالرفض المطلق ، والإنكار التام :

إن هذا عين ما سجله القرآن الكريم عن الماديين في مجابهتهم له . ولكل الأديان السماوية السابقة . وتلك حقيقة واضحة وملموسة لكل من يطالب القرآن . خاصة في قصص عن الأمم الغابرة . أو حكايته عن المشركين في عهد رسول الله (ﷺ) .

وحسبك أن نقرأ سورة مثل سورة الشعراء المكية لترى تلك الحقيقة في جلاء . إنك تقرأ فيها .

﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين .
كذبت ثمود المرسلين .
كذبت عاد المرسلين .
كذبت قوم لوط المرسلين .
كذبت قوم نوح المرسلين .

أما مشركو العرب فلهم حظ وافر . وسجل حافل . في الكفر بالله ، والتكذيب بدينه ، والاستهزاء برسوله .

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ،
أجعل الآلهة إلها واحدا : إن هذا لشيء عجاب :
وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق .

كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب .

إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾[٢٦]

وفي سورة الأحقاف .

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾[٢٧] .

تلك هي حقيقة الماديين وشأنهم دائما مع الأنبياء والمرسلين ، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الزخرف :

﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ، فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين ﴾[٢٨]

وفي سورة سبأ قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنما بما أرسلتم به كافرون ﴾[٢٩] .

ويسجل الله تعالى على الماديين تكذيبهم : واعترافاتهم المخزية بأسباب هلاكهم . فيقول في سورة المدثر :

﴿ ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ﴾[٣٠] .

وقد وضع الله تعالى في قرآنه الكريم سورة خاصة تكشف عن السلوك العملي لمن يكذب بالدين .

---

(٢٦) ص . ٤ - ١٤
(٢٧) الأحقاف . ٧
(٢٨) الزخرف : ٦ - ٨
(٢٩) سبأ : ٣٤
(٣٠) المدثر : ٤٢ - ٤٧

﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون : ويمنعون الماعون ﴾[٣١] .

لهذا : كله ينهي الله المؤمنين عن أن يتخذوا لهم أولياء من هؤلاء الذين يهزأون بدينهم ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء : واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾[٣٢] .

* * *

ذلك هو موقف الماديين الملحدين من الدين كما صوره القرآن الكريم عنهم وعن نظرائهم في الماضي السحيق .

ترى : هل يختلف الماديون في العصر الحديث عن هؤلاء في مواجهتهم للدين ؟ وإذا كان ثمة اختلاف فهل هو في المنهجِ أو في الموضوع ؟ ذلك ما نبحثه ـ بعون الله تعالى ـ في الفقرة التالية :

---

(٣١) الماعون : ١ ـ ٧

(٣٢) المائدة . ٥٧ ، ٥٨

الإلحاد العلمي

العلم الحديث

لقد تفجرت النهضة الأوربية باسم العلم الحديث ، وهو الذي يعتمد اعتمادا كليا على « المنهج التجريبي » وهو منهج حسي . لا يعترف بغير المحسوس .

وينكر كل معرفة يصل إليها الإنسان من طريق آخر غير حسي كذلك . ولقد فتر الناس بذلك المنهج : وبالمنجزات الحضارية التي غمرت الحياة على أساسه .

أما العلماء التجريبيون ، فذلك شغلهم الشاغل :وتلك فتنتهم الكبرى . ومن ثم يحاولون ـ جهدهم ـ إخضاع كل شيء للبحث التجريبي .لا فرق في ذلك بين العلوم الطبيعية . وبين غيرها من علوم من علوم الحياة ، والنفس ،والأخلاق ، الاجتماع والاقتصاد . الخ .

ولقد ساعد على إشتعال تلك الفتنة عاملان لا يمكن إغفالهما :

العامل الاول : موقف الدين ـ ممثلا في الكنيسة اللاهوتية ـ من العلم التجريبي ، ومنهج البحث فيه : فقد كان موقفا مضادا . للعلم ، مناهضا له ومن ثم حورب العلماء التجريبيون حربا شعواء . وتعرضوا بسبب مكتشفاتهم ونظرياتهم العلمية الى التعذيب الوحشي . والقتل والإحراق . والسجن والنفي وللتشريد .

العامل الثاني : أن ذلك النوع من العلم يحقق ـ وبسرعة ـ إنجازات هائلة ومكتشفات ضخمة تسهم إسهاما فعالا وسريعا في البناء الحضاري ورفاهية الإنسان .

هذان العاملان أشعلا فتنة العلم التجريبي . ولو أن تلك الفتنة . اندفعت

بقوتها نحو البحث العلمي ، والمزيد من الاختراعات لخدمة الإنسان فحسب لكان ذلك مفيدا وجميلا .

ولو أن تلك الاندفاعة قامت على أساس إيماني صحيح بعيدا عن اللاهوتية الكنيسية لكان ذلك أجمل وأفضل . بل لسارت حينئذ في مسارها الصحيح .

ولكن . ما قدر كان : الكنيسة اللاهوتية ، تحارب العلم باسم الدين ، لأن ذلك العلم يتعارض مع مقدساتها التي هي في حقيقتها جملة مبتدعة الخرافات والأساطير .

من هنا رسخ في الأذهان ، أذهان العلماء التجريبيين ، بل تأكد لديهم أن الدين يتعارض مع العلم ، ولم يقف الأمر عند حد « الدين » بمفهومه الكنيسي اللاهوتي . بل انطلقت الفتنة تجاه الدين بعامة أي دين : وضعيا كان أو سماويا : وعلى وجه الخصوص لو كان سماويا صحيحا كالإسلام .

كما أن تلك الفتنة لم تقف عند حد الحدود الجغرافية الأوروبية ، وإنما تخطتها بقوة هائلة إلى الشرق الأسلامي ، بل غمرت العالم كله .

ونحن أبناء الشرق الأسلامي مغرمون بالاستيراد الفكري والصناعي على حد سواء ، بسبب عوامل التخلف والجهل والأمية الثقافية ، بالإضافة إلى الاحتلال العسكري الذي منيت به ديارنا ، ردحا طويلا من الزمن . وكذلك الاحتلال الفكري الذي ما يزال مسيطرا على كثير من الأدمغة الفارغة .

وكان من آثار تلك الفتنة : أن العلم الحديث ـ بحكم منهجه في البحث ـ لا بد أن يدلي بدلوه في قضايا الوجود ، وحقائق الحياة ، وما وراء المادة ، فضلا عن مواجهة « الدين » الذي حورب باسمه ، ومن قبل رجاله وبلاهوادة فيها .

لقد حاول أنصار البحث التجريبي أن يحلوا مشاكل الحياة ، وقد طرحوا آراءهم في القضايا التي تشغل الإنسان .

أما أنهم جادون في البحث المادي ، والتجارب والمعامل ، فذلك شيء نحمده لهم ، وهو يحقق وبلا شك ، قيمة حضارية ممتازة .

ولكن المشكل : أن هؤلاء العلماء » قد اندفعوا - بدافع الغرور والفتنة - إلى ما هو أبعد من نطاق البحث التجريبي .

ذلك أن البحث التجريبي : خاص بميدان محدودة هو ميدان « المادة الصماء » فليقل رأيه فيها كما يشاء . أما ما وراء المادة ، وقضايا الألوهية ، والوحي ، والنفس الإنسانية ، فتلك فوق مستوى البحث التجريبي : ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

بكل التأكيد : أن مثل هذه القضايا لا يمكن - بحال ما - التحكم فيها ، وإجراء التجارب عليها . ولكن يمكن بالملاحظة العلمية الوصول إلى معرفتها والتيقن من وجودها .

ولكن الماديين لا يقنعون من المعرفة بالعقل وحده ، بل يقنعون بالرؤية العملية ، والمشاهد الحسية ، كما قال اليهود من قبل لموسى عليه السلام : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

وبالمنطق العلمي ، لن يتحقق ذلك لاختلاف طبائع الموجودات فماذا كانت النتيجة ؟

النتيجة العقيمة التي توصل إليها الماديون : إنكار وجود الله ، وإنكار ما رواء المادة ، والحقائق الكلية ، والقضايا العامة .

والخطأ واضح في سوء استخدام المنهج ، لأن المنهج التجريبي ، منهج حسي ، ومجال محدود بالمادة المحسوسة ، والمعرفة التي يتوصل اليها حسية جزئية ، فكيف يمكن بهذا المنهج إنكار المعارف الكلية ، وإنكار كل ما لا يمكن إخضاعه للبحث التجريبي . إن هذا إسفاف وليس من البحث العلمي في شيء ، بل هو

افتراء على العلم وعلى الحقيقة .

الإلحاد العلمي :

واضح إذن أن رجال العلم الحديث لهم موقف خاص من قضايا الدين وذلك رد فعل لموقف الكنيسة الكاثوليكية من ذلك النوع من العلم ، وذلك الموقف لم يكن وقفا على الدين الممثل في الكنيسة وانما إنسحب على الدين بعامة « ولقد تفشى ذلك في العصر الحديث حتى وسم بأنه « عصر الإلحاد العلمي » خاصة في القرن الماضي : القرن التاسع عشر . الذي اشتهر بأنه « عصر الفكر المادي » .

الموقف الآن يتطلب منا أن نكشف عن أمرين :

الأمر الاول : يتعلق بأقوال رجال العلم الحديث .

الأمر الثاني : يتعلق بإيضاح حقيقة هذا النوع من العلم ، وهل هو فعلا يضاد الدين ؟ أم أنه مفترى عليه ؟ .

فماذا قالوا باسم العلم الحديث .

في الفلك :

« في مفتتح القرن التاسع عشر وجه نابليون بونابارت سؤالا إلى علامة الفلك في زمانه « لا بلاس» عن عمل القدرة الإلهية في تنظيم الأفلاك السماوية ، وكان لتوجيه هذا السؤال إلى « لابلاس » سبب خاص ، وهو ظهور كتابه عن علم الحركة العلوية أو « الميكانيكا السماوية » وفيه يشرح حركة الفلك . ويعللها بالقوانين الإلهية ، كما يدل اسم الكتاب فقال علامة الفلك مجيبا سائله الكبير الذي كان يقول في الدين بمثله قوله : إنني لم أجد في نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله » .

ثم يعقب العقاد على هذا بقوله « ومضى القرن التاسع عشر إلى نهايته والرأي الغالب فيه بين المشتغلين بالعلم ، والمؤمنين به . وهو هذا الرأي الذي تحدث به

« لابلاس » إلى « نابليون » إن العلم كاف كل الكفاية لتفسير جميع الأسرار »[٣٣] .

في البيولوجيا :

أبرز العلماء الماديين في هذا الجانب هو دارون ١٨٨٢ م صاحب « نظرية النشوء والارتقاء » وما يسمى « التطور الطبيعي » .

إن أصدق وصف ـ في نظرنا ـ لدارون هو ذلك الذي قال به يوسف كرم في كتابه « تاريخ الفلسفة الحديثة » قال : ـ

« قد كان دارون مؤمنا بالله الى وقت ظهور كتابه أصل الأنواع وقال في ختامه « إن الصور الحية الأولى مخلوقة » ثم تطور فكره شيئا فشيئا ـ حتى أعلن أسفه عن استعمال لفظ « الخلق » مجاراة للرأي العام ، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز ، وأن ما في العالم من ألم يعدل بنا عن القول بعناية إلهية »[٣٤] .

وبقوله للأستاذ وحيد الدين خان وهو بصدد الحديث عن الأساس الأول في معارضة الدين .

« بطل هذا الانقلاب في البيولوجيا هو « نيوتن » الذي عرض على الدنيا فكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية ، ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالا علميا أوسع حتى قيل : إن كل ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم ، سموه قانون « الطبيعة » فلم يبق للعلماء ما يقولون بعد هذا الكشف ، غير أن الإله كان هو المحرك الأول لهذا الكون .

« ويضرب والتير مثلا في هذا الصدد : أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة ويحركها . ثم تنقطع صلته بها ، ثم جاء هيوم فتخلص من هذا الإله الميت .

---

(٣٣) العقاد في عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ٣٠ ط ٣ بيروت
(٣٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٤١

وعلى حد قوله « لقد رأينا الساعات وهي تصنع في المصانع ولكننا لم نر الكون وهو يصنع فكيف نسلم بأن له صانعا »[٣٥] .

الوضعية المنطقية :

أو ما يسمى « الفلسفة الواقعية » ويعتبر أوجست كونت مؤسسها الحقيقي ، وداعيتها الأكبر ، ويعتبر هذا المذهب صورة سافرة للمادية المسفة التي ترى ، أن كل شيء في الإنسان مادي : جسمه وعقله وروحه . وشعوره ووجدانه إلخ .

ويرى كونت أن البشرية مرت بثلاثة أدوار ، وهي بصدد البحث عن المعرفة .

الدور الاول : الفلسفة الدينية :

وفي هذا الدور ، كانت العناية فيه بتعليل الظواهر الكونية ، والقوانين الطبيعية بردها إلى قوة خارج الطبيعة ممثلة في الإله أو الآلهة المتعددة

الدور الثاني : الفلسفة العقلية :

وهنا إرتقت البشرية شيئا ما في إدراكها للأشياء ، فبعد أن كانت تفسر كل شيء في الطبيعة بقوة الآلهة « أصبحت تفسرها بقوى طبيعية كامنة فيها يعمل العقل على اكتشافها ، والتعرف عليها بعيدا عن الآلهة .

الدور الثالث : الفلسفة الواقعية :

وهنا بلغت البشرية كمالها ـ في نظر كونت ـ فأصبحت تفسر الأشياء تفسيرا واقعيا محسوسا ، يقوم على اكتشاف ما بها من ترابط وتشابه ، دون النظر إلى ما وراء ذلك من قوى خارجية ، لا تعترف بها .

واضح أن كونت يرى أن الدور الأول يمثل « المرحلة البدائية » في الحياة

---

(٣٥) الاسلام يتحدى ص ٢٥ ط ٤

الإنسانية ، وأن الدور الثاني يمثل مرحلة الانتقال ، أما الثالث فهو الكمال .

الحق أن هذا منطق معكوس يتنافى مع الحقيقة والواقع ، كما سنوضحه بعد إن شاء الله تعالى .

في المادية التاريخية :

أصبح من الشهرة بمكان تلك المزاعم المسفة التي قال بها سدنة الإلحاد الأحمر ، من كارل ماركس وانجلز ولينين وستالين ، غيرهم ، لقد قالوا :

الدين أفيون الشعوب :

وقالوا « إن كل دين ليس سوى الانعكاس الواهم في دماغ البشر . للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم اليومي »[٣٦] .

أما في التحليل المنطقي والفلسفة الرياضية فها هو : برتراند رسل . يساند المادية التجريبية فيقول .

« الإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف . إن بدأه ونشوءه ، وأمانيه ومخاوفه ، وحبه وعقائده . كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة والقبر ينهى حياة الإنسان . ولا تستطيع أية قوة إحياءه مرة أخرى .

إن هذه المجهودات الطويلة . والتضحيات والأفكار الجميلة .
والبطولات العبقرية ، كلها سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي .

« إن الكفاح الإنساني كله سوف يدفن حتما مع الأرض تحت أنقاض الكون ، ولو لم تكن هذه الأفكار قطعية ، فإنها أقرب ما تكون إلى الحقيقة حتى أن أية فلسفة تحاول إنكارها ستلقي فناءها تلقائيا »[٣٧] .

* * *

---

(٣٦) حول الدين ص ١٤٧ كارل ماركس وانجلز

(٣٧) الاسلام يتحدى ص ٣٨

هـذا بعض ما قالـه الماديون باسـم العلـم الحـديث . في (عصر الإلحـاد العلمي) وهناك الكثير والكثير غير هذه الأقوال .

والحق : أن ما يقال الآن باسم « العلم الحديث » عن الدين وقضاياه ، يختلف في مضمونه وغايته عما جاءت به تلك المذاهب المادية القديمة :

وإن كان ثمة اختلاف بينهما فإنما هو اختلاف في طريقة استخـدام لمنهـج وليس في المنهج ذاته : لأنهم جميعا يلتقون على المنهج الحسي ويعتقدون : أنه المنهج الوحيد الذي يصل به الإنسان إلى المعرفة الصحيحة : وأن أية معرفـة لا تخضـع للإدراك الحسي فهي مرفوضة رفضا باتا .

***

والذي يعنينا الآن ، أن نوضح موقف العلم الحديث ، من ذلك الذي يقال باسمه :

فهل صحيح أن « العلم الحديث » ينكر الدين وقضاياه .

الحق : أن العلم الحديث مفترى عليه بتلك الأباطيل المزعومة : وأنـه هو نفسه ينكرها ولا يقرها :

إن هذا يقتضي منا أن نعرف ما هو « العلم الحديث » أولا : ثم نثني بذكر ما يراه في تلك القضايا : من خلال الرؤية القرآنية الصحيحة ومن خلال آراء رجاله المخلصين له . والمنصفين لأنفسهم وللحقيقة :

وهنا نقول :

إن العلم هو العلم قديما وحديثا : لا يختلف باختلاف الزمن ، ولكن يختلف باختلاف طبيعة موضوعه ومنهج البحث فيه : فهناك :

العلوم الدينية

والعلوم الطبيعية
والعلوم الإنسانية
والعلوم الرياضية
وكذلك لكل من هذه العلوم مناهجها الخاصة بها . والتي تتفق وطبيعة البحث فيها .

أما ذلك الذي يدعى باسم « « العلم الحديث » فإنما هو ذلك النوع من العلوم التي يعتمد البحث فيها على « المنهج التجريبي » أي المنهج الحسي بشقيه الملاحظة ، والتجربة :

إن هذا المنهج قد عرف من قديم الزمن بل هو أبسط المناهج معرفة ، وأيسرها إدراكا للإنسان : وهو المنهج الشائع لعموم الناس في كل أمة من الأمم :

وهذا المنهج ـ بصورته العلمية الدقيقة ـ قد عرفه المسلمون من قبل وقامت عليه دعائم الحضارة الإسلامية الرفيعة . في وقت كان الجهل رابضا في أحضان القارة الأوربية ، وكان الظلام يخيم على أرجائها :

وقد انتقل ذلك المنهج على يد ،طلاب العلم الأوربيين في المدارس الإسلامية بالأندلس : فأحدث ذلك فتحا جديدا : لعلم لم يعرفوه ومعرفة لم يبلغوها : ومن هنا سموه « العلم الحديث » كما أطلقوا اسم « النهضة الأوربية الحديثة على حضارتهم تلك التي قامت على هذا المنهج .

وفي بلادنا الإسلامية : تداولنا تلك الكلمة ضمن الكثير والكثير مما نتداوله عن طريق الاستيراد الفكري :

والآن ، ماذا يقول « العلم الحديث » ؟

لقد قال أساطين هذا العلم كلمتهم في قضايا الدين والحياة : ودونوها مؤلفاتهم وهي بين أيدينا :

إن منها على سبيل المثال - كتاب « العلم يدعو للإيمان » لمؤلفه كريسي موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، وقد كان لهذا المؤلف قصة مع كتابه هذا :

لقد حدث أن قام الملحد الشهير جوليان هكسلي بتأليف كتاب سماه « الإنسان يقوم وحده » يهدف من ورائه إلى القول بأن الانسان لا يحتاج إلى عناية إلهية : ومن ثم يؤكد - عليه اللعنة - رفض فكرة الإله باسم العلم الحديث :

وهنا انبرى له ذلك الرجل ليرد عليه باسم العلم الحديث ، مستخدما نفس السلاح في كتبه « الإنسان لا يقوم وحده » والذي ترجم باسم « العلم يدعو للإيمان » .

والكتاب مطبوع بالعربية وميسور فليرجع إليه من يشاء وحسبنا أن نقتطف منه ما يلي :

يقول المؤلف في مقدمته :

« وغرضي من تأليف هذا الكتاب هو أن أسترعي انتباه المفكرين إلى الحقائق التي صار ممكنا إثباتها والتي ترمي إلى تأييد الاعتقاد بذلك التنظيم وتدل على الغاية منها :

« إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة ، وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىء الكون ، وإني أورد قول « أوسيورن في هذا المجال بين جميع الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الكون تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ وذكاء ، وذاكرة وآمال ، وقوة كشف وبحث ، وقدرة على تذليل العقبات »[٣٨] .

---

(٣٨) العلم يدعو للايمان ص ٤٦

وتحت عنوان : كيف بدأت الحياة « يقول كريسي موريسون :

« انظر إلى الشيء الهام الوحيد : إنه أهم من الأرض نفسها : »

ومن الكون كله . وأهم من كل شيء آخر . مساعدا الخالق المدبر الذي كان السبب في وجود ذلك الشيء .

أعني تلك النقطة من النطفة « البروتوبلازم » التي لا تكاد ترى . وهي شفافة لزجة (كالجيلاتين) قادرة على الحركة . تستمد نشاطها من الشمس وهي بالفعل كفء لاستخدام ضوء الشمس في عزل ثاني أوكسيد الكربون من الهواء . مرغمة الذرات على الانفصال . قابضة على الهيدروجين من الماء . ومنتجة لهيدرونات الكربون وبذا تعد غذاءها بنفسها من أحد المركبات الكيموية المعقدة للغاية .

إن هذه الخلية الفريدة ، هذه النقطة الصغيرة الشفافة التي تشبه الطل تحتوي في نفسها على جرثومة الحياة »[٣٩] .

إن هذا الكتاب يقدم البراهين العلمية التجريبية للرد على « الإلحاد العلمي » وأنصاره المفتونين به .

وقد سلك هذا المسلك ولكن بصورة أشمل الأستاذ وحيد الدين خان في كتابه « الاسلام يتحدى » حيث يعالج قضايا الدين الاساسية :

قضية الألوهية .

قضية الرسالة .

قضية الحياة الأخرى .

يعالج هذه القضايا بمنهج البحث التجريبي . نفس السلاح الذي يستخدمه الماديون ـ خطأ ـ في تدعيم إلحادهم وتمردهم على الله تعالى .

---

(٣٩) نفسه ص ٩٤

بقي لنا بعد ذلك أن نشير إلى أن الماديين إذ يعتدون على الحقيقة الخالدة باسم العلم الحديث » إنما يقدمون بذلك عملا مضادا للطبيعة الإنسانية التي فطرت على الإيمان بالله عز وجل .

حيث إن الدين مركز في أعماقها . ولن يصرفها عنه سوى عوامل طارئة متمثلة في البيئة أو التربية أو المعتقدات الموروثة والثقافات الشائعة .

ومن هنا لن ترى على وجه الأرض ـ قديما وحديثا ـ إنسانا يحيا بدون عقيدة ، ويعيش بغير إيمان : بصرف النظر عن صحة تلك العقيدة أو بطلانها وعن خطأ ذلك الإيمان أو صوابه .

المهم أنه من حيث المبدأ لن يستطيع اقتلاع جذور التدين من فطرته .

ومن هنا نجد الملحد ـ وقد تمرد على الله وعلى فطرته ـ يرتمي في أحضان معتقدات أخرى يدين لها بالطاعة والولاء بشكل ما سواء كانت تلك المعتقدات مادية أو معنوية ـ ومن ثم تعددت وتنوعت تلك المعتقدات على مر الزمن : من حيوانية ونباتية ، وصنمية ووثنية . وسواء في ذلك القديم منها أو الحديث .

إنّ الواضح مثل لذلك الذي نراه : هو ما وقع من أوجست كونت رائد الوضعية ـ المنطقية ، وصاحب نظرية الأطوار الثلاثة التي مرت بها البشرية في البحث والمعرفة :

وهي ليست بنظرية محترمة : لأنها تقوم على المنطق المعكوس :

فهل يرقى الإنسان بفكره من الروحي إلى العقلي :

إلى الحس حسبما رأى كونت ؟

أم أن العكس ـ تماما ـ هو الصحيح ؟

إن أوجست كونت بهذا المنطق المعكوس ، قد انحرف عن جادة الصواب ، فرفض الايمان بالله ، ولكن من حيث لا يدري إذا به يخترع لنفسه « دينا » يسميه « ديانة الإنسانية » يحل فيه الإنسانية محل الإله .

وكهانة ورهبانية من ، الفلاسفة والشعراء .

ما معنى هذا ؟

أنه لم يستطع التخلص من فطرته ، فابتدع تلك الديانة الوهمية يرضي بها غروره ، ويشبع بها ذات نفسه .

المدرسة الاجتماعية الفرنسية :

من كل هذا الذي أوردناه يتضح لنا :

أن الدين فطرة جبلت عليها النفس البشرية :

وأن العلم بوسائله المتاحة ، ومناهجه المختلفة ـ خاصة المنهج التجريبي يؤكد تلك الفطرة ، ويدعم تلك الحقيقة .

ومن هنا ـ أيضا ـ ينكشف لنا مدى التهافت الذي وقعت فيه المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي يتزعمها « دور كايم » حيث ترى :

« أن الدين وليد الأسباب الاجتماعية بل يذهب الى أبعد من ذلك ، ؛ فيزعم أن عناصر التفكير ، وأسس المعرفة العقلية نفسها ، ما هي إلا صور ولدتها حياة الجماعة ، وطبعتها على غرار النظم الاجتماعية »[٤٠] .

واضح أن دور كايم يقصد بذلك أن الدين يكتسب من الجماعة

---

(٤٠) د/ محمد عبد الله دراز في « الدين » ص ١٥٨ طبعة دار القلم بالكويت نقلا عن دور كايم ، ويراجع في الموضوع أيضا ، « الاجتماع الديني » الدكتور أحمد الخشاب في المبحث الرابع من الفصل الثالث .

الإنسانية ، بل الإنسان في فكره ومعرفته ـ وليد الحياة الاجتماعية .

وقد حاول دور كايم أن يدعم دعواه تلك بالبحث عن أحوال الجماعات الإنسانية البدائية ، وماذا كانت عليه تلك الجماعات من الأديان : ومن خلال بحثه يرى : أن « التوتمية » هي أقدم الأديان على الإطلاق .

والدكتور دارز رحمه الله قد نقض تلك المزاعم نقضا تاما وشافيا بما لا يدع ـ بعده ـ مجالا لحديث ، والذي يعنينا هنا وينبغي أن نلفت النظر إليه ـ هو :

أننا لو سلمنا جدلا بما قرره دور كايم ، فماذا تكون النتيجة ؟

إن النتيجة التي نؤكد عليها هي :

أن « التوتمية » أو غيرها من المعتقدات القديمة في الأشباح والأرواح وغيرها .

إنما تدفع إلى البحث عن تفسير تلك الظاهرة ـ ومحاولة التعرف على الأسباب النفسية التي تكمن وراءها ، وتدفع إليها .

ومن الواضح ـ حينئذ ـ أن وراء تلك المعتقدات ، ـ دوافع نفسيه فطرية ، دفعت تلك الجماعات إلى محاولة إشباعها . وتحقيق رغبتها الفطرية ، بتلك الأنواع من المعتقدات .

فهي إن دلت على شيء إنما تدل على مدى تمكن فطرية التدين ـ من النفس البشرية .

وأن وسيلة الإشباع تلك : إنما هي محاولة خاطئة وفاشلة لجأت إليها تلك الجماعات في غيبة الرسالات السماوية الكريمة .

بقيت كلمة أخيرة :

وهي أن ما جاء به دور كايم ، يعتبر في حقيقة أمره « وجهة نظر » لكنها مرفوضة تماما ، ومنقوضة بالمنهج العلمي الصحيح إنها - في حقيقتها - ليست نظرية ، لأن النظرية العلمية الصحيحة تثبت أمام النقد الهادف البناء .

إن هذا الذي جاء به دور كايم ، يقبل منه ، فهو يهودي أوربي ، لا يؤمن إلا بكل ما هو محسوس لأنه يدين بالمنهج التجريبي .

أما أن يسير في ركبه رجل مسلم - فضلا عن أن يكون معدودا بين المفكرين والأدباء بل هو « عميدهم » حيث « عمده » أحباؤه والمفتونون به - فذلك أمر يدعو الى الدهشة .

ولكن تلك الدهشه سرعان ما تزول : إذا ما علمنا سيرة الرجل ، وتاريخه الفكري وتربيته الأدبية ، التي فتن بها ، فاستخدم معارفها استخداما سيئا ، يناهض به الإسلام ويتنكر بل ينكر الأديان .

إنه طه حسين الذي يقول :

« إن العالم ينظر الى الدين كما ينظر إلى اللغة ، وكما ينظر إلى الفقه ، وكما ينظر إلى اللباس . من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية في تطورها ، وتتأثر بما تتأثر به الجماعة .

إذن : فالدين في نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر ، لم ينزل من السماء ، ولم يهبط به الوحي ، وإنما خرج من الأرض ، كما خرجت الجماعة نفسها »[41] .

(41) أنور الجندي كتابه عن طه حسين : حياته وفكره ص 241 نقلا عن مجلة السياسة الأسبوعية 17 يوليو 1926 .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .

صدق الله العظيم .

تم الجزء الأول   والله أعلم .

محتويات الكتاب

الفصل الرابع
الماديون في مواجهة الدين

تم الجزء الأول بحمد الله

صدر للمؤلف

1 ـ مناهج البحث الخلقي في الفكر الاسلامي 1978
2 ـ الاسلام والفكر المادي
3 ـ الاسلام والتيارات المعاصرة . بالاشتراك مع الدكتور عبد المعطي 1978
4 ـ التحديات المعاصرة في مواجهة الإسلام 1981

تحت الطبع :

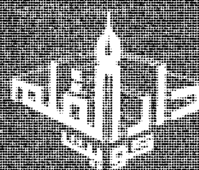
1 ـ القرآن الكريم في مواجهة الماديين الملحدين الجزء الثاني
2 ـ في رحاب السنة
3 ـ الكبائر في ضوء القرآن والسنة

دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول

هاتف: ٢٤٥٧٤٧٠ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقياً: توزيعكو

ص.ب: ٤١٦٩ الصفاة 13062 الكويت



دار القلم دبي

ص.ب: ١١٨١٧ - هاتف: ٥٢٨٠٠٣

